من مصر إلى الشاطيء الآخر

اسم الكتاب: من مصر إلى الشاطيء الآخر

اسم الكاتب: محمـــد يونـــس

تصميم الغلاف: مصطفى الدناصوري

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى – 2020 م

رقم الإيداع: 2888 / 2021

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 34 – 1

arabiclibrary2017@gmail.com

almaktaba79@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

مــن مصــر

إلى الشاطيء الآخر

محمــد يونــس

للنشر والتوزيع
Arabic Library

التعريف بالمحاورة

هدى إسماعيل كاتبة صحفية تعيش في الولايات المتحدة الامريكية منذ اكثر من عقدين من الزمان، لها برنامج اذاعي اسبوعي يبث للمهاجرين العرب في الساحل الشرقي الامريكي يسمى "القافلة" وينطلق من جامعة سيتن هول بولاية نيوجيرسي، وايضا اول امرأة عربية تؤسس جريدة تهتم بالثقافة العربية والأدب والشعر العربي أسمها "وجوه عربية" ومهمتها إلقاء الضوء على الوجوه العربية الناجحة التي تركت بصماتها على الحضارة الأمريكية وكانت سببا مباشرا في نهضتها، مهتمةُ بالعمل الأهلي والاجتماعي وعملت كمستشارة إعلامية للعديد من الجمعيات الاهلية العاملة في خدمة المجتمع المدني ودائما فخورة بجذورها المصرية وحريصة على التواجد بين المهاجرين العرب للتباهي بهم بين الامم المهاجرة من كل فج عميق من انحاء المعمورة الى ارض الاحلام الامريكية

المقدمة

أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعم كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصَى، أهمها هي نعمة خلقِه من عدم على هذه الأرض؛ حيث يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في سورة الإنسان "هل أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا".

ومع نعمة الخلق من عدم أمدّه الخالق بنعمةِ القدرة على العمل لتحقيق الغاية الأساسية من خلقه، وجعلَه خليفةً له في الأرض، كما منحه الرحمن الإرادة التي تُعتَبر أرقى وأسمَى النعم على الإطلاق، وأقواها للوصول إلى الأهداف الحقيقية من وراء وجوده في هذه الدنيا؛ وهي عبادة الله سبحانه وتعالى على المستوى الديني والدنيوي، والتمييز بين طريق الخير وطريق الشر، وبين مناصرة الحق ومباغتة الظلم، وأنّ الله دائمًا وحتمًا موجود طالما للإنسان وجود.

ومحمد يونس صاحب هذه القصة هو واحد من الناس الذين وهبَهُم الله النعم السابقة لتحقيق الغاية السامية من خلقِه، إنسانٌ رفض أن يكون على الهامش، ووقف لكل من حاول تهميشه، وسعى في الأرض بين مناكبها لكي يثبت لنفسه أولًا أنّه يستحق أن يكون إنسانًا.

خلال رحلته مع الحياة برهَنَ للذي خلقه أنه عبدٌ صالح، جَدَّ وشقَى حتى جنى حصاد تعبه بالحلال رغم كل الضغوط التي أحاطته من كل جانب، ورغم صعوبة الطرق التي سلكها اختار الصعب وترك السهل للكسالَى والمتواكلين على رياح الأقدار.

قصةُ كفاح رجل عصاميّ بنى نفسه بنفسه، وسنجد الكثير من الدروس المستفادة والعِبَر المنشودة التي أتمنى أن تكون قنديلًا منيرًا للشباب الحالم بالهجرة، الساعي إلى حياةٍ أفضل ومستقبلٍ آمن له ولأسرته.

هدى إسماعيل

الفصل الأول

الميلاد والنشأة

"إيماني بالله هو أساس أي نجاح وصلتُ إليه" بهذه الجملة عظيمة المعنى بدأ المهندس الكيميائي محمد يونس صاحب القصة يروي فصول حياته، ويسترجع بذاكرته محطاتٍ في رحلته مع الدنيا، بداية من ميلاده سنة ١٩٤١ بقرية "كفر الشوربجي"؛ قرية صغيرة تقع في وسط دلتا مصر بمحافظة الغربية، بدأ مسترجعًا ذكرياته بالحديث عن ثورة يوليو المجيدة.

عندما قامت ثورة ٥٢ كنتُ طفلًا صغيرًا في العاشرة من عمري، أتذكر جيدًا تلك الأيام الجميلة، كم كنتُ سعيدًا جدًا بقيامها ،على الرغم من أنني الابن الوحيد لأسرة ميسورة الحال، ولسعادتي وفرحتي بقيامها سبب؛ رأيتُ بعيني ظلمَ الأغنياء لفقراء الفلاحين، وكيف كانوا يضربونهم ويعذبونهم بالسياط كالحيوانات، يعاملونهم معاملة العبيد في زمن انتهَت فيه العبودية، ومرّت فيه على رسالة محمد التي حرّرَت البشرية من العبودية 14 قرنًا.

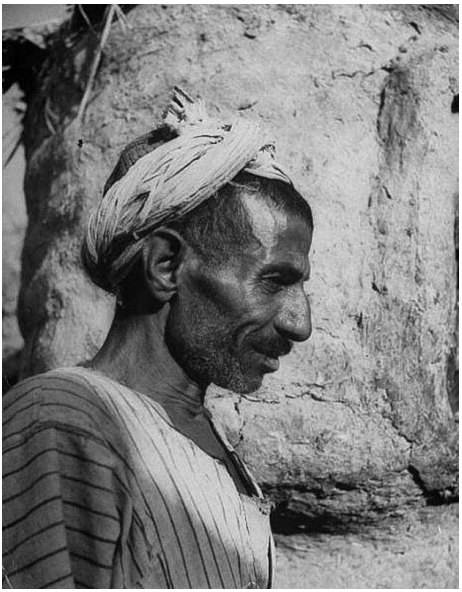

الفلاح المصري قبل ثورة يوليو

كيف يكون أحفاد الفراعنة بناة الأهرام عبيدًا على أرضهم يحكمهم تركي أو إنجليزي ويفرض الوصاية عليهم ويتحكم في أرزاقهم وقوت يومهم؟! أتذكر تلك العنصرية الطبقية التي تمكّنَت من مصر في هذه الحقبة التاريخية، وتصنيف الناس إلى طبقات فقيرة تنتمي إلى الفلاحين وأبنائهم؛ فيطلَق على هؤلاء ابن الجنايني وعلى هؤلاء من طبقة الأغنياء والإقطاعيين أبناء الناس من الأصول والباشوات، وفيلم "رُدّ قلبي" للرائع "يوسف السباعي " عبّرَ بصدق عن تلك الحقبة التاريخية وصوّرَها أفضل تصوير؛ حيث أعتبره مرجعًا تاريخيًّا لمن يريد معرفة هذا الجزء المهم من تاريخ مصر.

دوام الحال من المُحال؛ لم تستقر الثورة في بدايتها، بدأت تجارة والدي في التدهور على ضوء قوانين الإصلاح الزراعي والتأميم وهروب الأموال إلى الخارج، لكن بدأَت الظروف تتحسن تدريجيًا في أوائل الستينيات مع استقرار الوضع الاقتصادي للنظام الاشتراكي الذي أرسى قواعدَه الزعيمُ الخالدُ جمال عبد الناصر.

موسم جني القطن المصري

وحتى أكون منصفًا في شهادتي على تاريخ عاصرته، أود أن أنوه على أن قوانين الإصلاح الزراعي فكرة عظيمة، لكن تطبيقها كان سيئًا جدًا؛ لأنهم فتّتُوا الأرض الزراعية وأعطوها للفلاحين دونَ دراسة أو تخطيط ليزرعوا ما يشاؤون، مما أدى إلى انهيار زراعة القطن والقمح أهم المحاصيل الاستراتيجية

في ذلك الحين، والتي كانت تكفِي الإنتاج المحلي وتُدَار بها المصانع وتُصدَّر للخارج، وتدرُّ العُملة الصعبة، أذكُر أن الدولار الأمريكي أيامها ليس له أي قيمة أمام الجنية المصري الأقوى في البورصات العالمية حينئذ.

إسكندراني الهوى والهوية

على الرغم من أن مسقط رأسي في كفر الشوربجي إلا أنني إسكندرانيّ الهوى والهوية بحكم النشأة والتربية، ترعرتُ في مدارسها وكبرت في شوارعها، وتشبّعتُ بنسائِم هواها العليل الذي يُحيِي القلوب وينعش الإحساس، على شواطئها لعبتُ ولهوتُ، وفي لياليها القمرية أمسكتُ نجومَ السماء بيدي وأنا نائم ممدّدٌ جسدي على رمال بحرها المتلألئ في عيون عُشّاقه، عشقتها كعشقي لأمي، وأحببتها كحبي لعروسة بحر تمنيتُ أن تكون فتاةَ أحلامي.

صوفيا لورين تطل من شرفتها في فندق سيسل الإسكندرية

الإسكندرية الجميلة البهية المريّة مدينة كل العصور، وملتقى الحضارات، ولن يُثمِّنَ كلامي هذا إلا إسكندراني مثلي عاش فيها ويتمنى أن يعود إليها في يوم من الأيام.

امتلكَ والدي رحمة الله عليه ورشة لتصليح وبيع السيارات في كرموز، وعمل بالتجارة أيضًا، وكان معظمُ زبائنِه من الأوساط الراقية في المجتمع الإسكندراني؛ مما دفعه إلى حثِّي على التعليم لإيمانه أن التعليم هو أفضل الطرق وأسهلها إلى خلق إنسانٍ ناجح وراقِي.

استثمر أمواله في تعليمي، ولمَ لا وأنا الابن الوحيد لأسرة طموحة؟ أدخلَنِي أحسن المدارس؛ فتعلّمتُ الفرنسية بجانب العربية، وكنت أصغر طالب في الإسكندرية يملك سيارة، ولّما وصلتُ للثانوية العامة حدثَت واقعة مهمة؛ وهي سرقة امتحانات الثانوية العامة وإذاعتها في الإذاعة الإسرائيلية بالعربي بمعاونة رجال الملك وإقطاعي الحقبة البائدة، حينها أُشيع أن إسرائيل هي التي دبّرَت هذا لإحراج عبد الناصر.

تم إلغاء الامتحان، ومع التوتر والضغط النفسي والعصبي ما بين فترة الامتحانين مرِضْتُ مرضًا شديدًا ولم أتمكن من الحصول على مجموعٍ عالٍ يؤهلني لدخول كلية علمية كبيرة، التَحقتُ بكلية الحقوق مُرغمًا ولم أحبها؛ فحوّلتُ إلى كلية التجارة ولم أهواها أيضًا، انتقلتُ إلى كلية الآداب قسم أرصاد جوية، حينها قال لي مدير الجامعة: "لماذا لا تُعِيد الثانوية العامة وتُرِيحنا وترِيحُ نفسَك بدل قفزك من كلية لأخرى؟".

أخذتُ بنصيحته ودخلتُ امتحان الثانوية العامة للمرة الثانية، وحصلت على مجموع كبير يؤهلني لكلية الطب، وقَبِلتُ في كلية الطب جامعة أسيوط، ولكن أبي لم يكن سعيدًا بهذا الخبر، وقال: "سوف تهاجر إلى أسيوط وتتركنا؟!" أسيوط في هذا الوقت بالنسبة لهم غربة وسفر بعيد لم يقدر على تحمّله لابن وحيد مثلي، وانصَعْتُ لرغبته، رغم أن حلم عمري أن أكون دكتورَ جرّاح تخصص مخ وأعصاب.

كلية العلوم جامعة الإسكندرية

في أول سنة جامعية بدأَت تتكوّن شخصيتي من تلميذ مراهق يقود سيارة يلف بها شوارع الإسكندرية إلى طالب جامعي مسؤول عن تصرفاته في زمن الثورة وعبد الناصر زمن الأحلام الكبيرة والوردية، زمن الخطب الرنانة والعزة والكرامة، التحَقتُ بكلية علوم الإسكندرية قسم رياضة بحتة وطبيعة في بادئ الأمر، ولكن لم أقبل سياسة الأمر الواقع، وأتذكّر أن أستاذ المادة طرَدَني من المحاضرة بسبب اعتراضي على طريقة تدريسه.

حوّلتُ إلى قسم طبيعة وكيمياء، وأتذكّر كان معي في القسم عشرون طالبًا وطالبة معظمهم من خريجي مدارس اللغات، وكلنا أمل في مستقبل أفضل في ظلّ الثورة، حتى أصدر وزير المعارف آن ذاك "كمال الدين حسين"، وهو أحد الضباط الأحرار، قرارًا بتحويل الدراسة في قسم الكيمياء وكليات الطب والعلوم من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، اعتبرناه قرارًا كارثيًا؛ لأنه لا يوجد مراجع باللغة العربية فكلها بالإنجليزية؛ فكيف سوف نذاكر محاضراتنا من دون مراجع ونحن طلبة كليات عملية؟!

معمل كلية العلوم جامعة الإسكندرية

وقدّمْنا شكوى لمدير الجامعة، ولكنه لم يحرّك ساكنًا، بعد فترة تم العدول عن القرار والعودة للغة الإنجليزية للجامعات والكليات العلمية، وما بين تخبّط القرارات وتخبّط اللغات -خاصةً أن لغتي الأولى بعد العربية هي الفرنسية- عانيتُ كثيرًا في السنة الأولى، ودخلتُ في تحدٍّ كبير مع زملائي وأساتذتي حتى تخطيتُ هذه المرحلة الصعبة، وحصلتُ على بكالوريوس علوم قسم كيمياء وطبيعة بدرجة جيد جدًا مع مكافآت تفوّقٍ تؤهلني إلى أفضل الوظائف في أحد المصانع الكبيرة.

بداية حياتي العملية

بعد تخرجي من الجامعة عرضَ عليّ والدي رحمه الله أن يأتيَني بواسطة للعمل في أحد المصانع الكبيرة، ولكني رفضتُ بشدة وقلت له "نحن في عهد الثورة، لا مجال للواسطة والمحسوبية"، كان ناصر في ذلك الحين مثلي الأعلَى، كنتُ ناصريًا بشدة؛ لأنني كبرتُ وترعرعت في زمن الثورة.

انتظرتُ حتى جاء تعييني مدرس ثانويّ في مدرسة البنات الثانوية بدمنهور، صُدمت وهرولتُ إلى أبي أطلب منه واسطة لكي يجد لي وظيفة أخرى في أحد المصانع الكبرى كما عُرض عليّ من قبل.

بالفعل حصلتُ على وظيفة في شركة (باتا) بموجب إعلان في جريدة الأهرام عن طريق الواسطة، قام بإجراءات التعيين مدير التوظيف في الشركة الأستاذ "محمد عادل حبشي" الذي أصبح وزيرًا بعد ذلك، وفي هذه السنة كانت أول سنة يتم إنشاء قسم الأمن الصناعي لمنع وقوع حوادث للعمال وللمحافظة على المنتج، وعلى الماكينة أيضًا، وذلك من خلال تحسين وسائل السلامة، ولأن هذا القسم الذي عُيّنتُ فيه بعيدًا عن تخصصي قررتُ أن أثبتَ وجودي، بحثتُ في الكتب والمكتبات عن كل ما يتعلق بالأمن الصناعي، وعكفت أيامًا ولياليَ على الأبحاث والمراجع، وبدأتُ تطبيق ما قرأته على أرض الواقع، دخلتُ وِرَش مصانع (باتا)؛ لأضع يدي على مواطن الضعف

والثغرات التي تعرِّض سلامة العامل للخطر وتقلّل من الإنتاج، وبناءً على تقارير كثيرة كتبتها توقعت حريق أحد مصانع (باتا)؛ وهو مصنع الكاوتش، وقدمت تقريرًا لرئيس مجلس الإدارة اللواء "عبد العزيز فتحي"، وهو رجلٌ له هيبة وأحد الضباط الأحرار، ولكنه استهزأ بي وقال "اذهب لرئيسك المباشر دون حتى أن يعرف سبب المقابلة"، ذهبتُ إلى رئيسي المباشر أحذّره من كارثة سوف تقع، أتذكر اسمه جيدًا (محمد طه علي)، لكنه لم يهتم وقطّع التقرير ورماه في سلة المهملات.

وكما توقعتُ تمامًا بعد شهور وقع حريق هائل في مصنع الكاوتش، وتم استدعائي على الفور للتحقيق معي في الكارثة من رئيس مجلس الإدارة شخصيًا، ووجّه لي الاتهام بالتقصير وتحمّل المسؤولية الكاملة عن الحريق، ولكني استبسلتُ في الدفاع عن نفسي وطلبت استدعاء رئيسي المباشر السيد (طه)، وواجهته بالتقرير الذي قدمته له وهو رماه في سلة المهملات، وأمام هيبة رئيس مجلس الادارة لم يستطع الإنكار أو الهروب من تحمل المسؤولية.

هذه الواقعة كانت سببًا في تغيير قدرتي وتفكيري واتخاذ القرارات الصارمة لتحسين المصنع.

البداية من مصانع باتا

تمت ترقيتي بناء على هذه الواقعة إلى رئيس قسم الأمن الصناعي لمجموعة مصانع (باتا)، وأصبح لي مكتب خاص وسكرتيرة، ويعمل تحت يدِي عددٌ من الموظفين، ومنذ أن استلمتُ مهام منصبي الجديد انخفضَت الإصابات بنسبة 50٪، وبدأ عمال المصانع بارتداء القفازات والنظارات الواقية، وتم إنشاء مخارج الحريق عند الطوارئ، وتم تركيب أجهزة إنذار في كل مكان، وصمّمتُ على أن يقدموا ألبانًا لعمال المصانع لتأثيرها الإيجابي على رئة العمال، وتم رفع مرتبي من 20 جنيهًا إلى 28 جنيهًا.

كبرتُ في وظيفتي وزاد دخلي، وبدأت جدّيًا في التفكير في الزواج والاستقرار، في تلك الأيام خطفَت قلبي شابّة لها وجه ملائكي وابتسامة هادئة، لم أر في حياتي وإلى يومنا هذا امرأة بمثل هذا الوجه وتلك الابتسامة، أخت صديق لي تدرس في كلية الطب جامعة الإسكندرية، قصة زواجي جاءت غير تقليدية سوف أحكي عنها لاحقًا.

هناك واقعة أخرى لها تأثير عظيم على نضج شخصيتي وثقتي في نفسي؛ ذات يوم جئتُ إلى العمل متأخرًا، وحضر معي في نفس الميعاد مدير عام الشركة وقال لي: "هيّ عزبة أبوك عشان تيجي متأخر؟!" رددتُ عليه في نفس اللحظة: "هي عزبة أبوك انت كمان؟!"، وتداول موظفو المصنع هذه الواقعة، وتهامسوا بينهم عما فعلتُ معه وذاع صيتي، وبدأَت الأنظار تلتفتُ نحوي بسبب جرأتي وشخصيتي وسرعة بديهتي، وتم ترشيحي للانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي في الإسكندرية مجموعة (علي صبري)، وتأهيلي لقيادة المجموعة الشبابية.

الزمن الجميل

كنتُ محظوظًا أنا وشباب جيلي؛ لأننا عِشنا أحلى أيام في مصر في عهد عبد الناصر؛ زمن العزة والكرامة، التحضّر والأناقة والناس المحترمة، والفن الراقي الأصيل على جميع المستويات في الأدب والشعر والغناء والسينما والمسرح، زمن عبدالحليم وفريد الأطرش، وأم كلثوم، وإبراهيم ناجي، وأحمد رامي، والعملاق عبد الوهاب، فايزة أحمد، وفاتن حمامة، وسعاد حسني، ونادية لطفي، وغيرهم من عمالقة جيل الفن الذين أثّرُوا في حياتَنا في تلك الفترة بفنهم الراقي وإبداعاتهم التي أثّرَت في ثقافة جيل بأكمله، وكنتُ محظوظًا أيضًا لأنني حضرتُ إحدى حفلات كوكب الشرق أم كلثوم،

وجلست في أول صفّ، ورأيت تلك العظيمة وجهًا لوجه لأول مرة، وسمعتُ رائعتها قصيدة الأطلال، لها طلّة جميلة وهيبة كبيرة على المسرح، وأمام جمهورها تجعل الحجر يتكلم ويقول "الله الله كمان مرة يا ست الكل"، وأتذكر أنّي حضرتُ حفلًا لها بمحض الصدفة؛ حيث كنتُ في رحلة عمل في القاهرة وقابلتُ اثنين من زملائي من أيام الجامعة، وفي أثناء عودتي ليلًا إلى الإسكندرية ذهبنا إلى وسط البلد، جلسنا في (جروبي)، وكان حينها مزارًا سياحيًا، احتسينا قهوته الشهيرة ذات النكهة المميزة، استوقَفَنا أحد سماسرة بيع التذاكر لحفل أم كلثوم في شوارع قصر النيل، وقال "معي ٣ تذاكر بسعر خمس جنيهات فقط"، فتشنا جيوبنا فلم نجد معنا هذا المبلغ، ونظرنا إلى الساعة فوجدناها التاسعة إلا ربع، ومن المعروف عن أم كلثوم بأنها لا تسمح بدخول أحدٍ بعد الساعة التاسعة حتى لو كان رئيس الجمهورية؛ فداعبنا ذلك السمسار وقلنا له "ليس معنا غير 150 قرشا تأخذهم؟"؛ فظهر فجأة أمامنا ضابطًا لحفظ الأمن في الشارع؛ فارتبك السمسار وأعطانا التذاكر وأخذ المبلغ واختفى، ونحن في ذهول؛ لأننا حصلنا على تذاكر حفل أم كلثوم؛ فهرولنا إلى المسرح في تمام الوقت، بل وجلسنا في أول صف بعد أن أعطيتُ للكشاف الذي يرشد الناس إلى الجلوس خمسين قرشًا.

وطلّ الهرم الرابع أمامنا، ووقفت تنشد رائعتها الأطلال التي أحفظها عن ظهر قلب رغم مرور أكثر من خمسين عامًا حيث تقول:

يا فُؤَادِي لَا تَسَلْ أَيْنَ الْهَوَى.. كَانَ صَرْحًا مِنْ خَيَالٍ فَهَوَى
اِسْقِنِي وَاشْرَبْ عَلَى أَطْلَالِهِ.. وَارْوِ عَنِّي طَالَمَا الدَّمْعُ رَوَى
كَيْفَ ذَاكَ الْحُبُّ أَمْسَى خَبَرًا.. وَحَدِيثًا مِنْ أَحَادِيثِ الْجَوَى
لَسْتُ أَنْسَاكِ وَقَدْ أَغْرَيْتِنِي.. بِفَمٍ عَذْبِ الْمُنَادَاةِ رَقِيقْ
وَيَدٍ تَمْتَدُّ نَحْوِي كَيَدٍ.. مِنْ خِلَالِ الْمَوْجِ مُدَّتْ لِغَرِيقْ
وَبَرِيقٍ يَظْمَأُ السَّارِي لَهُ.. أَيْنَ فِي عَيْنَيْكِ ذَيَّاكَ الْبَرِيقْ
يَا حَبِيبًا زُرْتُ يَوْمًا أَيْكَهُ.. طَائِرَ الشَّوْقِ أُغَنِّي أَلَمِي

لَكَ إِبْطَاءُ الْمُذِلِّ الْمُنْعِمِ.. وَتَجَنِّي الْقَادِرِ الْمُحْتكِمِ
وَحَنِينِي لَكَ يَكْوِي أَضْلُعِي.. وَالثَّوَانِي جَمَرَاتٌ فِي دَمِي
أَعْطِنِي حُرِّيَّتِي أَطْلِقْ يَدَيَّا.. إِنَّنِي أَعْطَيْتُ مَا اسْتَبْقَيْتُ شَيَّا
آهِ مِنْ قَيْدِكَ أَدْمَى مِعْصَمِي.. لِمَ أُبْقِيهِ وَمَا أَبْقَى عَلَيَّا
مَا احْتِفَاظِي بِعُهُودٍ لَمْ تَصُنْهَا.. وَإِلاَمَ الْأَسْرُ وَالدُّنْيَا لَدَيَّ
أَيْنَ مِنْ عَيْنِي حَبِيبي سَاحِرٌ.. فِيهِ عِزٌّ وَجَلَالٌ وَحَيَاءْ
وَاثِقُ الْخُطْوَةِ يَمْشِي مَلَكًا.. ظَالِمُ الْحُسْنِ شَجِي الْكِبْرِيَاءْ
عَبِقُ السِّحْرِ كَأَنْفَاسِ الرُّبَى.. سَاهِمُ الطَّرْفِ كَأَحْلَامِ الْمَسَاءْ
أَيْنَ مِنِّي مَجْلِسٌ أَنْتَ بِهِ.. فِتْنَةٌ تَمَّتْ سَنَاءٌ وَسَنَى
وَأَنَا حُبٌّ وَقَلْبٌ هَائِمٌ.. وَفَرَاشٌ حَائِرٌ مِنْكَ دَنَا
وَمِنَ الشَّوْقِ رَسُولٌ بَيْنَنَا.. وَنَدِيمٌ قَدَّمَ الْكَاسَ لَنَا
هَل رَأَى الْحُبُّ سُكَارَى مِثْلَنَا.. كَمْ بَنَيْنَا مِنْ خَيَالٍ حَوْلَنَا
ومَشَيْنَا فِي طَرِيقٍ مُقْمِرٍ.. تَثِبُ الْفَرْحَةُ فِيهِ قَبْلَنَا
وضَحِكْنَا ضِحْكَ طِفْلَيْنِ مَعًا.. وَعَدَوْنَا فَسَبَقْنَا ظِلَّنَا
وَانْتَبَهْنَا بَعْدَمَا زَالَ الرَّحِيقْ.. وأَفَقْنَا لَيْتَ أَنَّا لَا نُفِيقْ
يَقْظَةٌ طَاحَتْ بِأَحْلَامِ الْكَرَى.. وَتَوَلَّى اللَّيْلُ وَاللَّيْلُ صَدِيقْ
وَإِذَا النُّورُ نَذِيرٌ طَالِعٌ.. وَإِذَا الْفَجْرُ مُطِلٌّ كَالْحَرِيقْ
وَإِذَا الدُّنْيَا كَمَا نَعْرِفُهَا.. وَإِذَا الْأَحْبَابُ كُلٌّ فِي طَرِيقْ

أَيُّهَا السَّاهِرُ تَغْفُو.. تَذْكُرُ الْعَهْدَ وَتَصْحُو
وَإِذَا مَا الْتَامَ جُرْحٌ.. جَدَّ بِالتِّذْكَارِ جُرْحٌ
فَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَنْسَى.. وَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَمْحُو
يَا حَبِيبِي كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاء.. مَا بِأَيْدِينَا خُلِقْنَا تُعَسَاءْ
رُبَّمَا تَجْمَعُنَا أَقْدَارُنَا.. ذَاتَ يَوْمٍ بَعْدَمَا عَزَّ اللِّقَاءْ
فَإِذَا أَنْكَرَ خِلٌّ خِلَّهُ.. وَتَلَاقَيْنَا لِقَاءَ الْغُرَبَاءْ
وَمَضَى كُلٌّ إِلَى غَايَتِهِ.. لَا تَقُلْ شِئْنَا! فَإِن الحق شاء

ليست فقط القصيدة التي أتذكرها، ولكن أتذكر بدقة بهاوات وهوانم مصر الذين كانوا في المسرح يستمعون للست، سيدات يرتدِين أفخم وأرقى ما عندهنّ من ملابس ومجوهرات، حتى تسريحات شعورهن كانت تشبه تسريحات شعر نجمات السينما العالمية في ذلك الحين، والرجال كانت بِدَلُهم وألوان أربطة عنقهم تخطف الأنظار من فرط الأناقة، حقًا إنه الزمن الجميل، وأنا كنت واحدًا من أبناء هذا الزمن.

الاتحاد الاشتراكي ورجال عبد الناصر

عندما كنتُ صغيرًا سمعتُ والدي يتحدث عن سعد زغلول ومصطفى كامل والنقراشي باشا وغيرهم بكل فخر واعتزاز؛ لأنهم روّاد الحركة الوطنية في مصر، وأول من أسّسوا للحياة السياسية بإنشاء الأحزاب، وآمنوا بالديمقراطية وأرسوا قواعدها وفرضوها على المَلِك والإنجليز، وعند قيام الثورة أول قرارٍ اتُّخِذ مع حزمة قراراتها الثورية هو إلغاء الأحزاب، وكان لابد من إيجاد بديل للحياة الحزبية، وفي عام 1957 تم إنشاء الاتحاد القومي ليكون بديلًا سياسيًا، وكان الهدف منه هو تحقيق أهداف الثورة لإقامة حكومة تعمل على تحقيق مطالب الشعب، وفي عام 1962 ألغَى عبد الناصر الاتحاد القومي، وحل مكانه الاتحاد الاشتراكي، وعند انضمامي للتنظيم كانوا يعدّون إلى أن أكون مسؤولًا عن لجنة الشباب الاشتراكي في الإسكندرية، ولكني اكتشفتُ أنه خدعة كبرى وليس بديلًا للأحزاب والحياة الديمقراطية، كان مجرّد بوقٍ للحاكم يتم فيه غسل أدمغة الشباب لصالح النظام، رأيتهم وسمعتهم في الاجتماعات يطلبون منّا أن نقول للشباب أن يربطوا الأحزمة على بطونهم، وأن يقتصدوا في حياتهم المعيشية، أو بمعنى أوضح يتقشفون في عيشتهم ويحرمون أنفسهم من مطالبهم الأساسية، وهم يرتدون أفخم البِدَل

العالمية والساعات الغالية الثمن، قلتُ في نفسي "ما هذا الهراء وما هذا النفاق السياسي والأخلاقي؟!"، ورأيتُ الصورة الحقيقية دون تزييف، وتعبَت حالتي النفسية وبحثتُ عن سكة للهروب من هذا الواقع.

صقور الاتحاد الاشتراكي في مصر: ضياء الدين داوود، **محمود فوزي، حسين الشافعي**، جمال عبد الناصر، أنور السادات، علي صبري، لبيب شقير

5 يونيو 1967 ليلة سقوط الأحلام الكبيرة

في يوم أسود أليم في تاريخنا الحديث أفاقَت أمة العرب من نومها القومي العميق على خبر هزيمة الجيش المصري أمام جيش إسرائيل وسقوط سيناء والضفة الغربية والقدس وقطاع غزة وهضبة الجولان السورية في يد الصهاينة، وسقطَت معهم أحلام جيلي كله، وسقطَت أيضًا أمةً بأكملها من محيطِها إلى خليجِها، وبهزيمة الجيش المصري عسكريًا انكسر المشروع

الناصري سياسيًا، وقرأتُ في مشهد خطاب التّنحيّ هزيمة ناصر نفسه ومشروعه القومي العربي الكبير.

عبد الناصر والمشير عامر وليلة سقوط أمة

ما زالت مرارة النكسة في حلقِي إلى اليوم؛ لأنها أثّرَت فيّ تأثيرًا كبيرًا، ومزّقَت قلبي وأفقدتني ثقتِي الكبيرة في نفسي، تحطّمَت آمالي ولم أشعر حتى بنجاحي على المستوى العمَلِي والعِلمي، أوشكتُ في هذه الأيام على الانتهاء من تحضير رسالة الماجستير تمهيدًا للحصول على الدكتوراه بعدها، وكيف لي أن أحلمَ بأحلام وردية ومستقبل باهر ومصر تتوشّح بالسواد حِدادًا على أبنائها الذين راحوا غدرًا وعدوانًا، وعلى عظيم الأمة وكبيرها عبد الناصر، كانت هذه ضربة قاضية بالنسبة لي دفعَتْني للبحث عن مخرج للهروب من الهزيمة.

لقد اتخذتُ القرارَ أنا أيضًا

عندما لمحتُ الدموع في عيون عبد الناصر أثناء خطاب التنحي حين قال: "لقد اتخذتُ قرارًا أريدكم أن تساعدوني عليه، وهو أن أتنحَّى عن منصبي وأنزل إلى صفوف الجماهير." أدركت على الفور بأنه انتهى؛ لأنه ليس من ذلك النوع من الرجال الذي يعيش كملكٍ مهزوم على عرشه متمسكًا بالسلطة أو بجاهٍ أو سلطان؛ لأنه رجلٌ عظيم، ولن تنجب أمةُ العرب رجلًا مثله إلى الآن، بعد هذا الخطاب بالتحديد اتخذتُ قراري أنا أيضًا؛ الهجرة، لكن إلى أين؟ لا أعلم؛ لأن ما حدث فاق كل احتمالاتي، ولم أعد أقوى على أن أرى ناصر كالأسد الجريح في عرينه، ممزقًا بين سقوط أمةٍ ووطنٍ مهزوم.

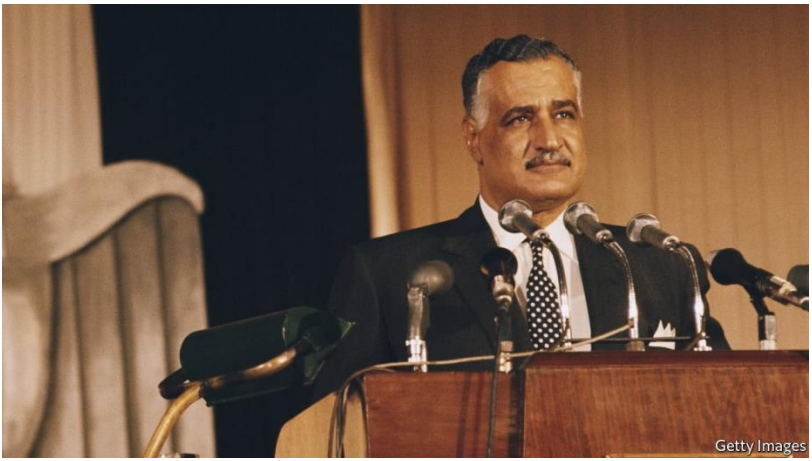

الزعيم الخالد جمال عبد الناصر

في هذه الأثناء أعلنَت السفارة الأمريكية في جريدة الأهرام عن فتح باب الهجرة إلى أمريكا، وأخذتُ الموضوع بجدّية، والحقيقة لستُ أنا وحدي من فكّر في هذا، بل شباب جيلي كلّه، وعندما استشعرَت الدولة المصرية بالقلق وخطورة هجرة الشباب، وخاصة العقول العلمية، أصدرَت قرارًا بمنع سفر من هُم يحملون أكثر من الشهادة الجامعية؛ الماجستير أو الدكتوراه أو ما يعادلها، إلا بموافقةٍ من الوزير شخصيًا.

على الفور تنازلتُ عن رسالة الماجستير التي أوشكتُ على مناقشتها إلى المُشرِف عليها أستاذي الدكتور (سامي الجرف) مدرس في كلية الهندسة جامعة الإسكندرية، وعُيِّن على أساسها أستاذًا مساعدًا في الكلية، ولم أندم على تنازلي عنها إلى الآن؛ لأنني كنتُ أريد أن أهرب من الهزيمة بأية طريقة.

وجّهتُ قِبلتِي إلى مقر السفارة الأمريكية في جاردن سيتي، كنتُ من أوائل المجموعات التي قدّمَت طلبات الهجرة، وأذكر أنْ تقدّمَ معي عدد كبير من أطباء ومهندسين، والكثير من العقول العلمية في شتى المجالات، وكان منهم عالم الفضاء الكبير فاروق الباز.

هنا استوقفتُ الكيميائي "محمد يونس"، وسألته:

- لماذا في هذا الوقت الصعب الذي تمر به مصر وأجواء الهزيمة تم فتح باب الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية؟

أجاب إجابة غير متوقعة قائلًا:

- فتحوا باب الهجرة لقتل عبد الناصر ومحاصرته؛ لقتل الثورة والقضاء على حلم القومية والوحدة العربية، لتفريغ مصر من العقول العلمية، ودليلًا على ذلك أنهم عقَدُوا مقابلة شخصية للمتقدم للهجرة للتأكد من أنهم من أصحاب المِهَن العلمية والعقول الكبيرة.

وجهتُ له سؤالًا أكثر حدة:

- هل شاركتَ في قتل عبد الناصر بتقدمك للهجرة؟
- عبد الناصر هو من قتَلَنا وقُتل معنا أحلامَنا.

وانتهى الحديثُ بيني وبينه في تلك المقابلة ونحن في حالة صمت، تركتُه وقدتُ سيارتي وأنا أفكر في إجابته على سؤالي، هل بالفعل عبد الناصر هو من تسبّبَ في سقوط أمتنا؟ وهو المسؤول الأول عن سقوط القدس؟ هل كان عبد الناصر ديكتاتورًا متخفّيًا وراء الخطب الرنانة والشعارات الزائفة باسم الوطن والقومية العربية؟ هل كان له وجهٌ آخر غير الذي نعرفه وقرأنا عنه في كتبِ التاريخ؟ هل كان نرجسيًا مريضًا بحب الظهور ويعشق البرمجندا؟ مَن الجاني ومن المَجني عليه؟! مَن الظالم ومن المظلوم؟! والسؤال الأهم من ذلك كله، مَن يكتب التاريخَ ومَن يشهد عليه؟

دار في رأسي ألف سؤال وسؤال بعد ما خرجتُ من عند واحد من أبناء هذا الجيل وشاهد على تلك المرحلة من بدايتها وإلى نهايتها، بكل إنجازاتها العظيمة التي حقّقَتْها وبكل مساوئها التي أنهت إمبراطورية ناصر القومية وسقطت فيها أمتنا العربية.

الفصل الثاني

التحضير للهجرة

حصلتُ على الفيزا عام 1968، لم أستطِع السفر على الفور، وكان لابد من عمل الترتيبات اللازمة، أهمها هو تقديم استقالتي من المصنع، أخطرت رؤسائي، صُدِموا لسماع الخبر، اتهموني بالجنون؛ لأنهم كانوا يعدُّون لي منصبًا كبيرًا في مصانع (باتا)، وعرضَ عليّ أحد مدراء المصنع أن يزوّجني ابنته، وأن أدخل معه أيضًا شريكًا في عمل خاص من الباطن وإنشاء مصنع لأكياس البلاستيك، وتعدّدَت الإغراءات أمامي، ولكن اتخذتُ قرارَ الهجرة وهو في الأصل هروبًا وليس لتحقيق طموح، وبالفعل قدّمتُ استقالتي وأخليتُ ذمّتي وخرجتُ بلا رجعة.

ذهبتُ إلى أبي لكي أخبره بالسفر، وأنا أعلم جيدًا أنه سوف يحزن بشدة، وسوف يعارض بشدة؛ لأنه لن يقوَى على فراقي وأنا الابن الوحيد، وكيف سيقبل بهجرتي إلى أمريكا وهو ذلك الشخص الذي رفض سفري إلى أسيوط عندما تمّ قبولي في كلية طب جامعة أسيوط؟! وكما توقعتُ ثار بشدة وغضب مني غضبًا شديدًا.

والدي رحمه الله

بعد أن هدأ عرضَ عليّ يبيعَ كل أملاكه ويعطيها لي لكي أغيّر فكرة السفر، ولكن قد أخذتُ قراري ولا رجعةَ فيه.

عندما ذهبتُ لأُخبرَ أمي كانت تتعثّر خطواتي خطوة تلو الأخرى؛ لأني أعرف مدى حبها الشديد لي وتعلقها بي، وكنت أسمع دقات قلبها يدق من الفرحة عندما أدخل عليها، وكانت دائمًا تدعو لي، شعرتُ في تلك اللحظة أني في أصعب مهماتي، كيف أواجهها بفراقِي عنها؟ استجمعتُ قوايَ وأخبرتها بما نويت عليه، كان رد فعلها عكس ما توقعت، وجّهَت لي سؤالًا:

- هل فكرتَ في موضوع الهجرة جيدًا؟ وهل ستجد مصلحتك فيها؟
- نعم، لقد أخذتُ قراري.

- سافر وقلبي يدعو لك يا بني.

نزلَت كلماتُها ومباركتها بالسفر عليّ كماءٍ باردٍ يُطفِئ نيران قلبي ويهدّئ من توتري، ويقوّيني ويشدّ من أزري على ما سوف أواجهه في غربتي، كانت امرأة مصريّة عظيمة وأصيلة، تعلّمتُ منها الثباتَ على المبدأ والثقة بالنفس وعزة النفس التي أثّرَت في شخصيّتي مدى حياتي.

بعد أن استأذنت أبي وأمي في السفر وأخليتُ طرفِي من عملي الحكومي في مصانع شركة (باتا)، وسوّيتُ مستحقاتي وبِعتُ سيارتي ودبّرتُ المال اللازم للسفر، توجّهتُ إلى بيت حبيبة قلبي ورفيقة دربي لكي أتقدّم للزواج منها قبل السفر، وحتى لا يأخذها أحدٌ مني، وبالفعل طلبتُ يدها من والدها، وكان رجلًا طيبًا خلوقًا، فنانًا تشكيليًّا أيضًا، كل أهل الفن في الإسكندرية يعشقون ريشته وألوان لوحاته، ونظرًا لأنه فنان مرهف الحس قدّر حبي لابنته ووافق على زواجي منها، وطلب مني أن أعاهده على أن أتركها تكمِل تعليمها، عاهدتُه وتم عقد قراني عليها في ربيع 1969 في حفل زواج صغير غير تقليدي مقصورًا على الأسرتين فقط وأقرب الأصدقاء.

يوم الرحيل

غادرتُ الإسكندرية عام 1969 مودعًا الأهل والأصدقاء والأحبة، تاركًا أجمل أيام العمر مستودعًا الله مصر كلها ومدينتي الصغيرة، لا أعلم متى سوف أعود وهل سأعود أم ذاهب بلا عودة؟

رحلتُ على ظهر باخرة ركاب من ميناء الإسكندرية متوجهًا إلى نابولي في إيطاليا لكي أستقلّ سفينة (مايكل أنجلو) العملاقة عابرة المحيط إلى شواطئ نيويورك، وفي الطريق ونحن في عرض البحر لمحتُ فتاة يهودية مصرية مع أسرتها تبكي بحرقة، اقتربتُ منها وسألتها:

- لماذا تبكين؟

أجابتني بصوت خافت حزين:

- نحن مطرودين من مصر وأُجبِرْنا على تركها.
- أنا مصري واتخذت قراري بترك مصر؛ فلا تحزني.
- أنا مصرية وبحب مصر، فلماذا أغادرها؟ ولماذا أُجبَر على مغادرتها؟! إنها بلدي التي وُلدتُ وكبرتُ فيها.

تركتها مع دموعها ونظرتُ إلى البحر وأمواجه، ومسحتُ دمعةً فرّت من عيني غصبًا عني حزنًا على مصر وعلى ما جرى لعبد الناصر ومنه.

صورة أرشيفية لطرد اليهود من الدول العربية وهجرتهم إلى إسرائيل

وصلَت المركب إلى سواحل نابولي في إيطاليا، نزلتُ أنا وصديق لي مهاجرًا معي أيضًا، ذهبنا إلى أحد الفنادق للراحة على أمل أن نرحل في اليوم التالي على ظهر (مايكل أنجلو)، تشبّث صديقي بشراء بطانية يوم السفر لتحميه من البرد وهو في طريقِه لنيويورك، طلبتُ منه الذهاب للمركب أولًا نضع حقائبنا ونثبتُ دخولنا ثم نعود ونشتري ما نريد، أثبَتْنا دخولنا وذهبت معهن وعند عودتنا إلى المركب لم أجد جوازَ سفري ولا حتى نقودي، ولا أعرف إذا كنت قد فقدتُهم أم سُرِقوا مني، تسمّرتُ مكاني وشُلّ تفكيري؛ لا أعرف ماذا أفعل؟ كان يمكنني السكوت على ضياع جواز السفر وإكمال الرحلة، لكني أبلغتُ عن فقدان الجواز خوفًا من أن يأخذه أحد، وخصوصًا كنا في حالة حرب مع إسرائيل.

تم منعي من السفر وطلبوا مني الذهاب إلى السفارة المصرية في روما لعمل جواز سفر جديد، نزلتُ من المركب وأنا في حالة ذهول ولم أصدق ما حصل لي، وهل أنا في حلم أم في كابوس أشباحه تطاردُنِي منذ وقوع النكسة.

أيام علّمَتْني كيف أكون رجلًا

كوني الابن الوحيد لم ألتَحِق بالجيش كبقية أبناء مصر من الشباب، لم أعِش حياة الجندية، والجيش المصري معروف عنه أنه مصنع للرجال، في الحقيقة نشأتُ طفلًا مدللًا وشابًا معتزًّا بنفسه زيادة عن المألوف، وأرى الأشياء المبهرة في عيني صغيرة وليس بحجم إبهارها في عيون الآخرين، أحيانًا كثيرة كنتُ مغرورًا لدرجة الحماقة، متمسكًا برأيي لحدّ العناد حتى بعد أن يثبتَ خطأ وجهة نظري، كنت إنسانًا يرى الدنيا بعينه فقط، ولكن من يوم أن فقدتُ جواز سفري والنقود التي كانت بمثابة كل ثروتي، ومُنعتُ من السفر وغادرت المركب إلى المجهول، نمَا بداخلي في تلك اللحظة شخصًا آخر غير الذي أعرفه، شخص مكسور خائف مهزوم لا يعلم من أين أتى وإلى أين ذاهب، إنسان غريب في بلد غريبة فقد أوراق ثبوتيته، ولا يعرف حتى التكلم بلغة الإشارة، ليس معه مال غير ذلك المبلغ الذي اقترضتُه من صديقي قبل أن أغادر المركبَ إلى المجهول.

ذهبتُ إلى محطة القطار أستقلُّ قطارًا إلى العاصمة الإيطالية روما، ونزلتُ في محطة خاطئة في تمام الساعة الثالثة صباحًا، واكتشفتُ من منظر المحطة أنها محطة لتخزين القطارات، نظرتُ يمينًا وشمالًا لم أجد أحدًا حولي وأجهشتُ بالبكاء، حتى ظهر لي شخص يتحدث الإنجليزية وأرشدني إلى طريق السفارة، واشترى لي قطعةً من الكيك وكوبًا من القهوة، وحمدتُ ربّنا وقلتُ في نفسي (يا بركة دعاكِ يا أمي)، ووصلتُ السفارة في السادسة صباحًا، طرقتُ الباب، ردّ عليّ سائق السفير وقال لي: "ارجِع في التاسعة تكون السفارة فتحِت"، انتظرتُ خارجها في طقس بارد جدًا ليس معي ملابس كافية، حتى فتحوا الأبواب ودخلتُ، قابلَنِي رجل غليظ القلب فظّ المشاعر، عرفتُ بعدها أنه السكرتير الثالث، وبعد أن سمع قصتي وجّهَ لي الاتهامات وشكّكَ في كلامي، وسألني كيف نعرف أنك صادق أم كاذب؟ وأن حكاية ضياع جواز سفرك ليست مجرد تمثيلية للهروب من جريمة ما ارتكبتها هنا أو هناك؟ استمعتُ له وأنا في حالة إعياء وذهول؛ لأني مُجهَد ومحبط ولا أقوى على الدفاع عن نفسي، ثم قابلتُ بعد ذلك الملحق الثاني بالسفارة، رجلٌ مهذّب دمث الخُلُق، صدّق روايتي وتعاطَفَ معي بشدة، وقال لي: "أنت تعلم أننا في حالة حرب، ولابد من التأكد من صحة كل شيء يُعرَض علينا، وأن أمريكا لن تقبل دخول أراضيها من دونِ جواز سفر، حتى لو معكَ أوراق الهجرة مُصدّق عليها من السفارة الأمريكية في القاهرة".

طلب مني أن أنتظر لمقابلة السفير ليستمَع إلى قصتي، كانت لهذه المقابلة وقعًا عظيمَ الأثر في نفسي، أعتبرها نقطة تحوّل كبيرة في حياتي، دخل عليّ رجل له كاريزما غير عادية، يجعلك تحترمه من أول مرة تنظر إليه، عرّفنِي باسمه السفير (سمير غانم)، وبعد أن استمع إلى حكايتي سكت قليلًا، ثم استدار لي وقال: "أمثالَك من بتوع بابا وماما لا يتحمّلون المسؤولية أبدًا، والاستهتار سمة من سمات شخصيتهم ولن ينجحوا أبدًا في حياتهم العملية، وإن السفر للرجال فقط"، استمعتُ إليه وأنا أعتصر ألمًا على حياتي الناجحة التي أسقطتُها بقرار هجرتي، ولكن ظلّ بداخلي ذلك الإنسان العنيد المعتزّ بنفسه الذي لا ينكسر أبدًا؛ فعند تلك اللحظة استجمعتُ قواي وانحصر خوفي، وبدأتُ أواجه أقداري بكل ثقة وحزم، مسحتُ دموعي، ووقفتُ حتى لا يظهر انكساري أمامه أكثر من ذلك، ولاحظَ الرجل ردّ فعلي ولَمَحَ الكبرياء والتحدّي في عينيّ، طلب مني أن أغسل وجهي، وعند عودتي وجدته طلبَ لي شطائر من الحلوى وكوبًا من الشاي، شكرتُه، وبعد أن هدأتُ قال لي: "يا بني، جوازُ السفر الجديد سوف يأخذ شهرين على الأقل، وأنصحُك بأن تبحثَ عن عمل"، وطلب من سكرتيرته أن تساعدني في البحث عن عمل، وبالفعل وجدتُ عملًا في مطعم لغسل الصحون، تحمّسَ السفير ونزل معي لإحضار بقية حقائبي من مكتب المركب في روما، وحمَلَها بنفسه، وذهب بي إلى الأكاديمية المصرية للفنون في روما، وفّرُوا لي حجرة

مجانًا لأسكن فيها، وأعطاني خمسِين دولار، وأثناء تجولي في أرجاء الأكاديمية قابلتُ صديقًا قديمًا من الجامعة اسمه (نصري يوسف إسكندر) كان يحضّر الدكتوراه، وبعد معاناة أصبح عندي عمل أسترْزِقُ منه ومكان يأويني، وصديق أتسامر معه وأشكي له همي، ونظرتُ للسماء مجددًا، وقلت: "يا بركة دعاكي يا أمي"، وعلى الفور ألقيتُ بجسدي المنهك على السرير ونمتُ نومًا عميقًا ولم أدري بنفسي إلا في اليوم التالي، ذهبت لاستلام عملي الجديد في المطعم وأنا كلّي أمل وتفاؤل، وكعادتي وطدتُ علاقتي بكل زملائي في العمل، وعندما علموا بأني مسلم أحضَرُوا لي طعامًا مخصوصًا ليس مطبوخًا بالخمور ولا يحتوي على لحم خنزير، وفي يومٍ أتى إليّ طباخ المطعم الشيف (جيوفاني)، أتذكر اسمه جيدًا لأنه كان يذكّرني بمطعم شهير في الإسكندرية اسمه (سان جيوفاني)، وطلب مني أن أعمل معه في المطبخ، وقال لي "اخترتك يا محمد لأنك طموح، وتريد أن تتعلم"، وفعلًا تعلمتُ منه جميع فنون الطبخ الإيطالي وعلى أصوله، على أمل أن يأتي معي إلى أمريكا ونفتح مطعمًا هناك.

في أكاديمية الفنون في روما

طالت الأيام والليالي وكدتُ أن أفقد الأمل، ذهبت إلى السفارة وطلبت مقابلة السفير، قلت له: "إني تعبان ومحبط، وطال انتظاري والفيزا أوشكت على الانتهاء، وسئمتُ من خداع أهلي في خطاباتي؛ لأنهم يعتقدون أن وجودي في إيطاليا للسياحة وليس لأسباب أخرى"، وأنا بطبعي أكره الكذب وأعتبره عدوَّ الكبرياء ويقلّل من قيمة الإنسان.

اهتم الرجل بي مجددًا، أرسل مذكّرة سريعة عبر الحقيبة الدبلوماسية بطلبٍ عاجل لاستصدار جواز سفر، وجاء الرد سريعًا في يوم الجمعة، فتح السفارة لي خصيصًا لعمل جواز السفر الجديد، شعرتُ يومها أنِّي وُلدتُ من جديد، وعرضتُ عليه أن يأخذ الخمسين دولار الذي أعطاني إياها ولكنه رفض، ونظر إليّ وقال: "ابقى افتكرني"، في هذه اللحظة نزلَت دموعي خجلًا

من نفسي، وشعرت بأني كبرتُ كثيرًا، وللمرة الثانية تحوّلتُ من إنسان مستهتر إلى رجل يُعتمَدُ عليه.

شهادة للتاريخ لابد وأن أشير إلى القوة الناعمة للدبلوماسية المصرية في ذلك الوقت، وكيف كانت لمصر مكانتها بين الأمم، على الرغم من الهزيمة، وأُرجِع السببَ في هذا للسفير (سمير غانم) وأمثاله من رجال الخارجية المصرية، رحمة الله على هذا الرجل الذي لم أنسَه إلى الآن، وأتمنى من سفراء مصر حول العالم أن يحذوا حذوه في مساعدة شبابنا في الخارج، وفي رأيي الشخصي، وبعد تجربة خمسة عقود قضيتها خارج مصر رأيتُ فيها الكثير وسمعت فيها أكثر، أود أن أقول أن سرّ القوة الناعمة لمصر يكمُن في سفرائها عندما يهتمون بأبناء وطنهم ومساعدتهم على أخذ حقوقهم ورفع الظلم عنهم، عندما تكون غاليًا في نظر وطنِك وتُعلِي من قيمة مواطنيك سوف يحترمك الآخرون ويعملون لك ألف حساب، والمعاملة بالمثل في كل دبلوماسيات العالم، وينعكس ذلك في علاقاتك التجارية والاقتصادية.

الفصل الثالث

28 أغسطس 1969 نهاية حلم وبداية آخر

سافرتُ إلى أمريكا بالطائرة نظرًا لضيق الوقت، وصلتُ مطار (جون إف كينيدي الدولي) في تمام الحادية عشر مساءً، ولأول مرة خطَّت قدماي بلدَ العمّ سام، وفي كل خطوة أخطوها تجاه شباك الجوازات للحصول على ختم الدخول تنتهي معها أحلامي في مصر وتبدأ أحلام جديدة، ولكن أبدًا لم ولن تنتهيَ مصر من قلبي.

أنهيتُ إجراءات الدخول وخرجت من المطار على أمل أن أجدَ أحدًا من أصدقائي ممن سبقوني إلى امريكا في انتظاري، لم أجدهم وليس معي في جيبي غير خمسين دولار، وجدتُ عنوانَ أحدهم معي، اضطررتُ إلى أن أستقلّ تاكسي وأذهب إليه، وأنا أجهل المسافة بين المطار ومكان البيت وكم سيكلف، وصلتُ إلى المكان في تمام الثالثة صباحًا، نقرتُ الباب والجرس،

خرجَت لي صاحبة البيت وصرخَت في وجهي وطردتني من خلف الباب، في تلك اللحظة أدركتُ أني كتبتُ العنوان خطأ، رجعتُ إلى التاكسي وأنا كلي حيرة إلى أين أذهب، وكان معي بالصدفة كارت عضوية جمعية الشبان المسيحيين المعروف عالميًا باسم (YMCA) حيث نصحني أحد أصدقائي الأقباط في مصر أن أستخرجه ربما ينفعني في الغربة، وسألت سائق التاكسي عنه، قال أنه يعرف مكان واحد منهم موجود في منطقة (باترسون) أحد أشهر الاحياء العربية بولاية (نيوجيرسي)، وأوصَلَني إليه وأخذ مني أجرته التي كلفتني خمسة عشر دولار، حجزتُ فيه غرفة على الفور، وسألتُ عن صديقي الذي سبقني إلى أمريكا على ظهر (مايكل انجلو) واسمه (محمود علي أحمد)، أرسلتُ له فجاء على الفور في الصباح، ولكن يا فرحة ما تمّت؛ لأنه طلع واحد باكستاني يحمل نفس الاسم، وكانت صدمة كبيرة بالنسبة لي، كيف أتصرف وماذا افعل؟ بدأتُ بتأمين مكان يأويني ودفعت عشرة دولارات حق أسبوع، وتبقّى معي الباقي، ذهبتُ للسوبر ماركت لشراء أقل ما يكفيني من طعام وشراب، وأتذكر أني اشتريتَ عشرةَ أرطال من الخوخ؛ لأني وجدته أرخص شيء، وكل يوم كنت أتناول واحدة أو اثنين، سألتُ عن كيفية عمل إجراءات أوراق ثبوتية، وذهبت وحدي لاستخراج رقم التأمين الاجتماعي حتى أتمكن من العمل، توجهتُ بعد ذلك إلى مكتب العمل للبحث عن وظيفة، قابلتُ واحدًا من أصدقائي هناك ممن كنت أبحث عنهم،

ونصحني بأن لا أظهرَ لهم شهادة الجامعة وأكتفى بإظهار شهادة الثانوية العامة حتى احصل على وظيفة بسرعة، وبالفعل حصلتُ على وظيفةِ عامل في مصنع للأكياس البلاستك بثلاثة دولارات في الساعة، وسعدتُ جدًا بهذه الوظيفة البسيطة واعتبرتها بداية كبيرة، وعند استلامي للعمل من أول يوم شعرتُ بعنصرية شديدة تجاهي؛ فصاحب المصنع كان من الأفارقة الأميركيين، سرعان ما اكتشفتُ أنهم يسندون لي الأشغال الصعبة والأحمال الثقيلة، ويستهزئون بي ويسخرون مني، وعندما اعترضتُ واشتكيتُ قال لي أحد المدراء "أنا رئيسك، وعليك أن تعمل بما تؤمر به"، وللأسف قبلتها لبعض الوقت، ولكن الإنسان المعتزّ بنفسه ما زال بداخلي بكل فخر واعتزاز لم يكسره الاحتياج.

تركتُ الوظيفة، وساقني حظي وببركة دعاء الوالدين إلى أن أتعرف على إنسان فلسطيني طيّبَ القلب ذي أخلاق رفيعة وراقية، حكيتُ له عن مؤهلاتي وخبراتي في مصانع (باتا)، وأنني في الأصل كيميائي، أخذني إلى منطقة كلها مصانع في مدينة (باترسون)، وساعدني في كتابة السيرة الذاتية التي قدّمتُها إلى ثلاثة مصانع منهم مصبغة لشركة إيطالية اسمها (كورنيت) (CORONET)، ومن هنا كانت البداية.

باترسون نيوجيرسي (مدينة الحرير)

مدينة ساحرة صاحبة أشهر شلالات تهبط من على جبال طبيعية، أخذتني بجمالها وروعة منظرها من أول مرة وقعَت عيني عليها، فيها وُلدَت أحلامي الكبيرة، شلالات نهر (باسيك) السبب في النهضة الصناعية التي تأسّسَت فيها، وتدِينُ بالفضل تاريخيًا إلى وزير الخزانة الأمريكي (ألكسندر هاملتون)، بمجرد حصول أمريكا على استقلالها أمر المهندس الفرنسي الشهير (شارل لانفان) مصمّم العاصمة واشنطن بأن يخلُقَ عاصمة صناعية تستمد طاقتها من شلالات نهر باسيك عن طريق توليد الكهرباء من الطاقة المائية.

شلالات مدينة الحرير

ومن ذلك الحين أصبحَت مهدَ صناعة الغزل والنسيج والحرير في أمريكا كلها، واستقطبَت الكثير من المهاجرين والعمال المَهَرَة في هذه الصناعة من شرق وغرب أوروبا، والمهاجرين السوريين الذين استوطنُوها مع بدايات الهجرة الأولى في أواخر القرن الثامن عشر؛ فهم أيضًا آثَرُوا هذه المدينة وقدِمَ إليها الكثير، استوطنَهَا أيضًا كبير الشعراء إيليا أبو ماضي عام 1911، وكتب فيها قصيدته الشهيرة بعنوان (أم القرى) لاحتوائها على أكبر عدد من المهاجرين من كل جنسيات العالم على اختلاف لغاتهم وألوانهم وعقائدهم، صارَت مهدًا للمهاجرين وقِبلَةَ الحالمين بالحياة الجديدة، ومصانع الحرير والنسيج كانت الجاذبة لهذه الهجرة الديمغرافية والسكانية من قبْل مجيئي بنحو قرنين من الزمان.

بدايتي في عالم صناعة الأقمشة والأصباغ

عند الحصول على الوظيفة واستلامها اكتشفتُ أنني الكيميائي الوحيد في المصنع؛ لأن الذي قبلي استقال، أعطوني هذه الوظيفة على الفور براتب 120 دولار في الأسبوع؛ لأنهم كانوا يحتاجونني بشدة، وفي الحقيقة كنت سعيدًا جدًا، ولكن واجهتني مشكلة كبيرة؛ وهي أنني لم أمارس العمل في مجال الأقمشة والأصباغ من قبل، ذهبتُ إلى مديري (ألماني الأصل)، ومن المعروف عن الألمان أنهم رجال صناعة وإنتاج، وكان متعاونًا جدًا، وشرحتُ

له أن مجال خبرتي الكيميائية ودراستي كان في صباغة الأقطان، أما الألياف الصناعية ليس لي خبرة بها، طمأنني وأشرفَ على تعليمي وتدريبي لكي يرفع من كفاءتي، وبالفعل تعلّمتُ بسرعة، ومما ساعدني على ذلك أيضًا وجود مكتبة في المصنع بها كتبٌ تتحدّث عن الأصباغ، وكثيرًا ما أخطأتُ ولكنّي علّمتُ نفسي بنفسي؛ تارة بالتدريب وتارة بالقراءة، وهنا نقطة لا بُدّ من ذكرها؛ وهي أهم ما يميز المصانع الأمريكية؛ وجود مكتبة تشمل كل ما هو جديد عن المنتج المُصنّع بها لتمد العمال بالمعلومات التي يحتاجونها، وأيضًا لإطْلَاعِهم عن الأبحاث العلمية الدورية التي تصدرُها مراكز الأبحاث.

وأعتبر نفسي محظوظًا لأنّني تعلّمتُ هذه المهنة في عصر النهضة لصناعة الأصباغ في أمريكا؛ ففي فترة أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لم تكن للمنتجات الصينية رخيصة الثمن ورديئة الجودة وجود أو ذكر.

الحلم الأمريكي أصبحَ بين يدِي

بعد ثلاثة أشهر بدأتُ أتنافس مع رئيسي في العمل، ووقَع أول اصطدام بيننا عندما طلبَ مني أن أعيد صباغة أحد الأقمشة؛ لأن بها بقع ألوان، ورفضتُ وقلت له:

- أغسلُها بالماء وسوف يرجع لونها المصبوغ دون بقع.

نظر لي باستغراب وقال:

- هل ستعلّمني عملي كيف يكون؟

فأجبته:

- وأنا أيضًا أعرف عملي جيدًا.

ومما عزّز موقفي كان يوجد بسقف المصنع ثقوب نزل منها مياه الأمطار على القماش، وعند غسلها بالماء تعود لها لونها، وقد قمت بغسلها وذاع صيتي في عالم الأصباغ، وقوِيَ مركزِي في المصنع.

بعد استقرار مركزي في المصنع وفي المسكن وأصبح لي دخل ثابت فكّرتُ جدّيًا في استقدام حبيبة قلبي ورفيقة دربي إلى أمريكا، وبعد مكالمات تليفونية باهظة الثمن في ذلك الوقت كلّفَتْني الكثير، وبعد عمل متواصل لمدة عام كامل استطعتُ أن أشتري تذكرة طيران لكي أرى زوجتي التي لم تستطِع امرأة أخرى في الكون أن تملأ مكانها في قلبي، وبالفعل جاءت في أول زيارة لها في صيف 1972، ونظرًا للوعد الذي وعدتُ به والدها بأن تكملَ تعليمها؛ حيث كان يتبقّى من سنوات تعليمها في كلية الطب سنتان فقط وتحصل على بكالوريوس الطب، أعدتُها إلى مصر على أمل اللقاء.

مع رفيقة دربي في مطار كينيدي ١٩٧٢

وعدتُ إلى عملي وأنا كلي تفاؤل، وأملك الدافع لكي أواصل الحياة والنجاح في غربتي التي اخترتُها هروبًا من هزيمتي النفسية.

وفي حادثة خطيرة تعرضتُ لها كدتُ أن أفقدَ فيها حياتي، ولكن ببركة دعاء الوالدين نجوتُ منها بأعجوبة، في بداية حياتي العملية كنتُ أستيقظ مبكرًا أستقِلّ الحافلة لكي أذهب إلى عملي، ونظرًا لجهلي بطبيعة الجو القاسية في بلاد الثلج لم أتّخذ حذرِي جيدًا؛ فانزلقتُ في الثلج وانجرفتُ إلى الطريق السريع وعبرته بجسدي والسيارات تجري مسرعة في الاتجاهين، حتى وصلت إلى حافة النهر وكدتُ أن أقفز فيه من قوة الدفع، لكن ربنا ستر واصطدمتُ بشجرةٍ حالَت بين وقوعي في النهر العميق.

مرّ عامان على عملي في المصنع تعلّمتُ فيهما الكثير من مديري الألماني، وفي هذه الأثناء تم تعْيِين مدير جديد تمهيدًا لتسرِيح المدير القديم، كنتُ في حيرة من أمري؛ لأني أدين بالولاء لهذا الرجل الذي علّمَنِي المهنة وأصولها، طلبتُ من المدير الجديد أن يجِد لي وظيفة في مصنع آخر ويستأثر هو بوظيفته الجديدة وبالمصنع أيضًا؛ فهذا أنا.. وفيٌّ كوفاء الخيل، ولا أتسلق النجاح على أكتاف غيري، وبالفعل وجدُوا لي وظيفة أخرى في مصنع BENTAX يملكه يهودي ورئيسه يهودي، ولكن مديره من هنغاريا اسمه (زلطان بوشيه)، وتم عمل مقابلة معي من قِبَل رئيس المصنع استغرقَت 10 دقائق، وفي الحقيقة كانوا في بداية الأمر متردّدِين في قبولي في الوظيفة؛ لأن عمّال

المصنع معظمهم يهود، ونظرًا للحرب الدائرة بين مصر وإسرائيل خشُوا من نشوب خلافات بيني وبينهم تؤثر على العمل، ولكن مدير المصنع الهنغاري حسمَ الصراع لصالحي وتم تعييني في الوظيفة بمرتب 200 دولار في الأسبوع.

دعاني صاحب المصنع واسمه (بن فريد) إلى مكتبه، وأبدى إعجابه بعملي وعلاقتي بزملائي في العمل، وقال لي:

- I wish all the Musilms like you.

وبكل جرأة وسرعة بديهة رددتُ له الجملة التي في ظاهرها مجاملة وفي باطنها التقليل من شأن المسلمين، وقلت له:

- I wish all the Jews like you.

وبعد ستة أشهر تم رفع راتبي إلى الضعف، وأصبحت صاحب رأي وكلمة مسموعة، وخصوصًا عندما زار المصنع وفدٌ فنيّ من فرنسا وطُلِب مني أن أستقبلهم؛ لأنني الوحيد الذي يعرف اللغة الفرنسية حسب ما ذَكرتُ في سجل طلب الوظيفة، وشعرت لحظتها أنني في ورطة كبيرة لعدم إتقاني الفرنسية بشكل يؤهلني للتحدث بها، ولعبَ القدرُ دورًا كبيرًا هذه المرة، كان ضمن الوفد مهندس فرنسيّ من أصل مغربي يتحدث العربية، وسوّينا الأمر بيننا بلغة الضاد وتعادَلَنا؛ فهو لغته الإنجليزية ضعيفة، ونجحَت الزيارة وحقّقَت أهدافها، وسألني صاحب المصنع كيف عرفتُ أنه عربي؟ فأجبته : بقلبي وبإحساسي عرفتُ أنه عربي.

مرّت الأيام، وكل يوم يمر أتعلم أكثر وأكثر في هذه المهنة التي اكتسبتُ فيها خبرات لم أكن أحصل عليها إلا وأنا في موقعي هذا بين الماكينات الدائرة والأقمشة.

بعد عدة سنوات بِيعَ المصنع إلى واحدة من أكبر شركات الكيماويات في أمريكا اسمها Dow Chemical، وجاءت الإدارة الجديدة من ولاية تقع في جنوب شرق أمريكا معروفة بالعنصرية، وأصدروا قرارات جديدة، وأهمها؛ فصل المدير الهنغاري والمدير اليهودي، وأنا بقيتُ في وظيفتي.

عملتُ مع مجموعة من الاستشاريين عيّنَتهم الإدارة الجديدة، ولكن للأسف لم يكن لهم أدنَى خبرة في مجال الصباغة؛ لأنها فنّ وليست فقط مقاييس ومعايير فنية، هنا وقع الصدام بيني وبينهم بصفتي المدير الفني المسؤول عن الصباغة، وقاموا بتعديل الماكينات القديمة إلى الجديدة دون النظر إلى المعايير الهندسية، وهذا لا يجوز، وبدأت المشاكل والتعرّض لخسارة، وبالطبع أنا المسؤول عنه، وحمّلوني المسؤولية وفصلوني من المصنع بتقرير ينصّ على أني غير مؤهل للتعامل مع رؤسائي، وتم تدمير سمعتي بهذا التقرير الذي يحتوي سبب الفصل وأنا لا أملك في جيبي غير 200 دولار وزوجة لا تعمل وطفلة رضيعة.

الفصل الرابع

مارس 1975 بدأت شمسٌ جديدة تسطع في سماء أحلامي، وغربَت مرحلة العمل تحت رحمة أحد، وانتقلت إلى مرحلة تحقيق الطموحات الكبيرة، والتي بدأت بقدوم زوجتي وإنجابها لأول بناتي، وبما أنني شخصية أرفض الفشل وأقبل التحدي في كل مواقف حياتي، وأرفض الاستسلام للهزيمة كما رفضت هزيمة 67 من قبل واتخذتُ قرار الهجرة، في تلك الفترة تلقّيتُ اتصالًا من مدير المصنع القديم اليهودي، وطلب مني أن أعمل معه في مصنع جديد يتم تفكيكه، وطلب مني الإشراف عليه، وتلقيتُ عرضًا آخر من صاحب مصنع صباغة صاحب اسم لامع في هذه المهنة يدعى (جاي مالتيس)، ذهبتُ إليه وأنا كلي ثقة في نفسي وأمل في الله سبحانه وتعالى، وفي أثناء المقابلة اكتشفتُ أنه مصاب بمرض عمَى الألوان؛ حيث سألني عن لون قطعة قماش كانت ملقاة على الطاولة فأجبته: "لونها أحمر"، رد عليّ وقال: "واحد منّا عنده عمى ألوان"، فسكتُّ برهة وقلت له: "أوافقك الرأي، واحد منّا عنده عمى ألوان بالفعل"، اصطحبني إلى المصنع ليطلعني عليه، وبعد ساعات من تفقده رجعنا إلى المكتب، وسألني "ما رأيك؟" أجبته: "أي مصنع تريدُ أن تأخذ رأيي فيه؟! هذا دكانٌ وليس مصنعًا"، اندهش الرجل من إجابتي وقال لي: "يا رجل، أنت غليظ وسليط في ردك وآرائك، ولكني

أرغب في إعطاء الوظيفة لك، فما هي أفكارك للتغيير والتحديث في هذا المصنع؟"، أخبرته بالإصلاحات اللازمة والتي أشبه بهدم المصنع وبناءِه من جديد، فقال لي "أيها المغرور كيف تجرؤ على انتقاد المصنع هكذا، وأنت الصغير سنًا وأنا الذي أسبقك في هذا المجال منذ عشرات السنين؟!"، قلت له "هذا ليس غرورًا، بل ثقة في النفس وفي خبرتي، وطبيعة عملِنا تُحسَب فيها كفاءة الأداء بالخبرة وليس بالسن"، استدار لي وسألني "كم تأخذ من المال؟" فأجبته "لماذا تسأل عن بضاعة لم تعجبك؟"

فصرخ في وجهي: "أنت شخص غليظ ومغرور، وصعب التعامل معك"، توجهتُ إلى الباب مسرعًا إلى الخروج، وعدت إلى البيت أنظر إلى ابنتي وزوجتي وأنا في حيرة لا أعلم ما الذي يخبئه لي القدر، ولكني دائمًا وأبدًا أقول "الحمد لله".

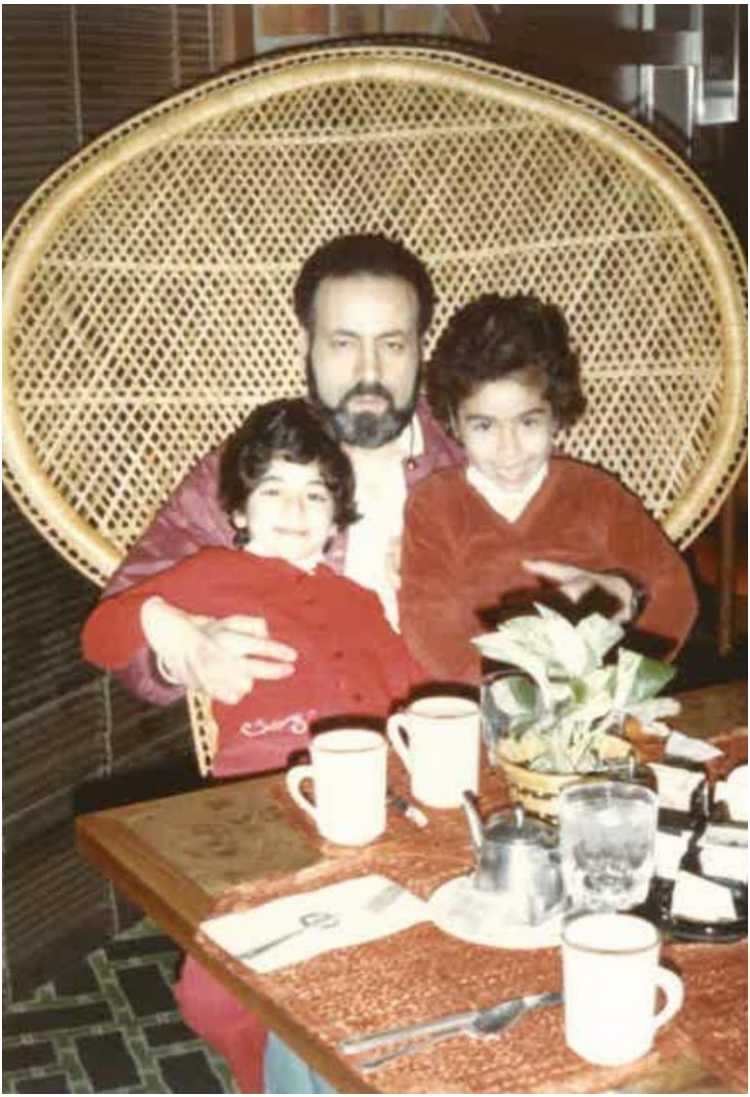

مع فلذات كبدي مها ومُنَى

بعد هذه الواقعة بأيام، وفي يوم الاثنين أول الأسبوع تلقيتُ اتصالًا هاتفيًا منه، يطلب مني فيه أن أذهب لمقابلته؛ فاتفقت معه على أن أذهب لمقابلته يوم الأربعاء لأني مشغول في بعض الأشياء، وفي الحقيقة كان ردًّا فعليًّا نوعًا من الكبرياء ولست مشغولًا بأي شيء، وهذه رسالة أوجهها لكل شاب يبحث عن عمل في الغربة "لا تنحني أبدًا وتهدر كرامتك من أجل وظيفة أنت محتاج لها؛ فربما لا تتيح لك الفرصة أن ترفع رأسك مرة أخرى، وتتعوّد على المذلة والمهانة لكي يحترمك صاحب العمل ويعطيك الوظيفة؛ ففطرة الإنسان التي فطره الله عليها لا يجب أن تغيرها احتياجات الدنيا".

ذهبتُ إليه وطلب مني أن أكون لطيفًا معه أولًا حتى يعطيني الوظيفة، وقال أيضًا "بعد لقاءِنا الماضي فكرتُ كثيرًا، ووصلتُ إلى إما أن تكون عبقريًا أو مخادعًا كبيرًا"، فقلت له "فلماذا إذًا تريد أن تعطيني الوظيفة وأنت متحيّرٌ في أمري؟"

فأجابني: "لقد سألتُ عنك وعرفتُ أنك موهوب في عملك ومبتكر، ولكن أسلوبك غليظ، وأنا أحتاج رجلًا مثلك في تطوير أداء المصنع ودفعه إلى الأمام".

وسألني: "كم تريد من المال لقبول هذه الوظيفة؟" فأجبته: "دعني أعمل أولًا ثم أعطني ما تحدده أنت"، واتفقنا على مدة ستة أسابيع، وفي خلال هذه المدة تم الأخذ بجميع آرائي السابقة، وتم تغيير وتعديل المصنع

وأصبح مصنعًا وليس دكانًا كما وصفته في بادئ الأمر، وعند استلام المرتب وجدتُ فيه قيمة ما قدمته من جهد وتعب وإخلاص في العمل.

بدأ اسمي ينتشر ويزهو ويشتهر في سوق مصانع الأصباغ في ذلك الحين، والتي كانت في عزّ توهّجها في سبعينيات القرن الماضي، ولكن لكل نجاح ثمنه الإيجابي وثمنه السلبي، بدأتُ أواجه مشاكل من ابن صاحب المصنع، وبدأَت الغيرة تدب في قلبه من مهاجرٍ مثلي حقق نجاحات في زمن قصير وأثبت وجوده في مدة زمنية صغيرة، والتعالي أيضًا على مهاجر مثلي يتحدّث الإنجليزية بطريقة تختلف عن ناطقيها بكل ثقة واعتزاز بالنفس، ومع ذلك أثبت وجوده.

من المواقف التي أتذكرها لذلك الشاب المستهتر، والذي كان جلّ همه هو كيف يصرف أموال والده، أننا ذهبنا في يوم إلى عشاء عمل مع عملاء لنا في مدينة منهاتن في نيويورك بصحبة والده، ونظرًا لسمعتي الحسنة التي سبقتني عندهم بدأوا الحديث معي وأخذ رأيي في صفقة معينة مع مصنعنا بناءً على صفقة مقدمة في عرض رسمي؛ فكانت إجابتي بالرفض وشرّحتُ وجهة نظري؛ وهي أن زيادة الأسعار جاءت نتيجة زيادة المحروقات، والتي ترتّبَ عليه زيادة أسعار المواد الخام؛ فوافقوا على ما طلبته، ومن هنا بدأَت علاقتي تتوتّر أكثر بيني وبين ابن صاحب المصنع، ولكن والدَه كان متحفّظًا

ولا يهمه غير المكسب وسمعة المصنع؛ فازداد تمسّكه بي دون رغبة ابنه الذي كنت أسمّيه دائمًا بالفاشل.

حرب 73 وتأثيرها على الصناعة في أمريكا

بعد أن تجرعتُ مرارة الهزيمة وسقطَت معها أحلامي الكبيرة، وقررت بعدها الفرار من أحزاني إلى عالم المجهول، اشتعلَت بداخلي فجأة طاقة نور أنارَت الظلمة التي عشتُ فيها سنوات النكسة والهروب منها عندما وصلتنا الأخبار أن المصريين عبروا القناة، وتم اقتحام خط بارليف المنيع وحطموا أسطورة إسرائيل التي لا تُقهَر التي روّج لها الإعلام الأمريكي قبل الإعلام الإسرائيلي نفسه، وتنامى بداخلي حلم العودة والحنين للوطن، ولكن استوقفتني استقالتي التي قدّمتها في مصانع (باتا) بعد المنصب الرفيع الذي وصلتُ إليه، وكيف أعود للوطن الذي تخليتُ عنه أثناء محنته؛ لأنني كنتُ أضعَف من أن أراه مهزومًا؟! وأيضًا النجاح الذي حققته هنا في أمريكا في مدة زمنية قصيرة، وأسرتي الصغيرة، ووفرتُ مصدرَ رزق يضمن لهم حياة كريمة؛ فقررتُ الهروب مرة أخرى من نفسي إلى واقعي الذي أعيشه.

النصر الكبير واقتحام خط بارليف

وواقعي كان في ذلك الوقت مبكيًا ومفرحًا في آن واحد، كانت فرحتي لا تسع الدنيا كلها؛ لأن حرب أكتوبر لم تكن حرب استرداد أرض فقط، بل كانت حربًا لاسترداد كرامة جيل بأكمله وردّ اعتبار لروح الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، واستعادة روح القومية العربية التي زرعها ناصر في نفوس العرب من المحيط إلى الخليج، بموقف المملكة العربية السعودية واتخاذها قرارًا بمنع تدفّق البترول إلى الدول الداعمة للكيان الصهيوني ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، في الحقيقة كان موقفًا عظيمًا ومشرفًا، ولكنه كان له تأثير كبير على المواطن الأمريكي البسيط قبل أصحاب الأعمال والمصانع، أصابهم حالة من الشلل التام في كل شيء، وتعطّلَت مصانع كثيرة، وتوقّفَت آلات الإنتاج، وأصبح الناس يتسارعون ويتصارعون على محطات الوقود، وأصبحت الطوابير إلى ما لا نهاية وبالأيام.

نفاذ الوقود من محطات الوقود

أُعلنَت حالة التقشف في البلاد وأُغلِقَت الأنوار، ومع نهاية الخريف وبداية فصل الشتاء ازدادَت الأمور سوءًا، ارتفعَت الأسعار ارتفاعًا جنونيًا في كل شيء، حتى المساكن والإيجارات، وأصبح التكالب على السلع والمستلزمات هستيريًا، ومن هنا كانت بداية غزو المنتجات الصينية للسوق الأمريكية، وأُغلِق عدد كبير من المصانع، والخوف من المجهول كان سمة هذا الوقت.

طوابير السيارات على محطات البنزين

وبدأتُ أتأثر أنا أيضًا، وتعطّل إنتاج المصنع الذي أعمل فيه، وبدأت الماكينات تعمل ساعات قليلة لمواجهة ارتفاع أسعار المحروقات، واضطرَرْنا للتعامل مع السوق السوداء في شراء ما يلزمنا، وأتذكر أنني في هذه الفترة بدأ اسمي في التنامِي والظهور، وتعمّدتُ أن ينادوني باسمي الأول "محمد" وليس يونس أو مايك؛ حيث جرى العرف في أمريكا أن يُنادَى الشخص باسم عائلته أو اسمه الثالث، ولكن اعتزازي باسمي الذي هو على اسم سيد الخلق محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا أصبح اسم محمد مرتبط بعالم الصناعة.

يعتبر هذا الوقت هو العصر الذهبي لمصانع الأقمشة والصباغة، وفيه تنامَت شهرة المصنع الذي أعمل فيه حول العالم، تلقّينا دعوة لزيارة أكبر شركة أصباغ في العالم، شركة (باير) الألمانية، لبَّينا الدعوة وذهبتُ أنا وكبير المهندسين في المصنع وابن صاحب المصنع الذي فُرِضَ علينا فيه، على الرغم من أنه لا يعرف شيئًا عن طبيعة عملنا، ولكننا ذهبنا.

نقطة تحول في حياتي

حزمنا أمتعتنا وتوجّهنا إلى بلد الصناعة في العالم، كانت لهذه الرحلة عظيم الأثر في نفسي وغيّرَت نظرتي إلى الحياة، وإلى أي مدى أريد أن يصل طموحي في هذه المهنة، هناك رأيتُ الجمال الحقيقي في كل شيء وقعت عيني عليه، رأيته في وجه الألمان، في الشجر، وفي البحيرات والانهار، رأيتُ جمَالًا خلابًا أوروبيًا يختلف تمامًا عن جمال الطبيعة في أمريكا، ولكني افتقدتُ شيئًا هامًا عندما نظرتُ إلى وجوه الناس؛ افتقدتُ التنوع بين البشر، في أمريكا نجد الأسود والأبيض، الهندي والأسيوي، العربي والمسيحي، المسلم واليهودي، الكلّ مختلف في كل شيء، في العِرْق واللون والجنسية والدين، ينحدرُون من كل فجّ، وجوهٌ كثيرة ومتعددة، ولكنهم يعيشون في تناغم تام وفي منظومة تحثّ على التعايش السلمي من أجل السلام الاجتماعي الذي أعتبره أنا شخصيًا مقياسًا لنجاح أي أمة تريد أن تتحضّر وتسابق الزمن وتقود الأمم

ألمانيا الأب الروحي لصناعة الأصباغ في العالم

بدأنا رحلتنا بزيارة مصانع الأصباغ، وعند النظرة الأولى أدركتُ أن هؤلاء الناس هم أحقّ البشر بلقب ملوك الصناعة والمصانع في العالم، يستحقونها عن جدارة، رواد صناعة النسيج في العالم؛ حيث الإدارة والتنظيم والدقة في العمل والجودة في الإنتاج، بعد أن انتهينا من زيارة المصانع أخذَنَا مدير الشركة في اجتماع خاص مع مستشاري المصانع، أتذكّر شكل القاعة التي اجتمعنا فيها إلى هذه اللحظة؛ قاعة اجتماعات كبيرة جدًا اجتمعنا فيها بملوك المهنة من مهندسين وعمال مهرة واستشاريين والمستثمرين في هذه الصناعة، في وسط هذه الأجواء شعرتُ أنني صغير جدًا ولا مجال لإثبات الذات بطريقة لا تُرِيح الآخرين، ولكن حدثَ شيءٌ غير مُتوقّع، التفتَ رئيسهم لي وقال:

- محمد، نريد مساعدتك وأخذ رأيك في كتاب أُصدِر عن كيفية صباغة "البوليستر"، وذلك لخبرتك في هذا المجال وسمعتك التي سبقتك إلينا.
- لقد قرأتُ هذا الكتاب ولا يستحق الورَقَ الذي كُتِب عليه.

و اندهشوا جميعًا، وسألني كبير مستشاريهم:

- لماذا مستر محمد؟
- لماذا أصدرتَ هذا الكتاب؟
- أصدرناه ليسترشد به العمال في المصانع.
- هل تعلم كيف تُدَار المصانع التي بها عمال بسطاء لا يتقنون اللغات غير لغتهم؟ سوف تواجهون صعوبة في شرح محتواه لهؤلاء البسطاء، وفي رأيي هذا الكتاب نظريّ يسترشد به في المعامل وليس للتطبيق العملي والإنتاج، هو من الناحية العلمية كتاب عظيم للكيميائيين والمهندسين والفنيين، ولكن لا يصلح للعمال العاملين على الماكينات.

وانتهَت المقابلة، وأتى بعدها المدير الفني وقال لي:

- كنا نعلم أنك جيد، ولكن لم نكن نعلم أنك ممتاز.

عدنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد جولة في المصانع الألمانية، بعد أسبوعين اتصل بي مدير مبيعات شركة BAYER في أمريكا وطلب مني أن أقابله في غداء عمل، وفي أثناء المقابلة قال: "معي رسالة من كبير مستشاري الشركة في ألمانيا، وهو يتقدم بالشكر لك على النصائح التي أرشدتَ بها

أصحاب القرار، وبناء عليه تم سحب الكتاب من الأسواق؛ لأن التطبيق العملي أهم من النظري، وأيضًا تم وضع أول حرفين من اسمك(M.Y) على نوع الصبغة التي حدّثتَنا عنها وعملنا التعديلات اللازمة عليها".

هنا توقفتُ مع نفسي مرة أخرى، واندهشتُ كثيرًا؛ فكيف أنا الصغير في المهنة والصغير في السن يتم وضع أول حرفين من اسمي على أهم منتجات الأصباغ لأكبر شركة في العالم ورائدة في مجالها؟ فأنا في الحقيقة لم أعدّل في الكيمياء المكونة للمادة ولكني عدّلتُ في التطبيق، في هذه الأثناء بدأتُ أشعر

بالثقة الحقيقية في النفس وليست المصطنعة التي كنتُ أُظهِرُها للآخرين حتى يحذروا مني ويحترموني، وكم أحسستُ أن دعاء الأم له دورٌ كبير في نجاحاتي، ودائمًا ما كنت أكرر "يا بركة دعاكِي يا أمي"، وبناء عليه قررتُ أن أغتنم هذه الفرصة جيدًا وأستثمرها لحسابي الخاص، وبدأتُ أفكّر في عمل منشأة صناعية، عرضتُ هذه الفكرة على مدير المبيعات في المصنع وصديقي المقرب (شارلي روساليس) وهو إيطالي، رحّب بالفكرة، وجاء لي ذات يوم وقال: "محمد، لقد وجدتُ المكان لتحقيق حلمنا"، ذهبتُ مهرولًا إلى البنك للتقديم على قرض كي أبدأ حلمي، ولكنه رفَضَ؛ لأن ليس عندي أية ضمانات أو أية أصول ثابتة لكي يعطوني القرض على أساسه.

قررتُ أن أتحدّى نفسي كعادتي وأذهب لصاحب المصنع الذي أعمل فيه وأصارحه بكل شيء، وأخبرته أنني سوف أُنشئُ مصنعًا خاصًّا بي، وكما توقعت ردة فعله؛ لأن الله سبحانه وتعالى وهبَنِي حاسة قراءة الآخرين، وربما لسبب رضا أمي.

جاء رد الرجل بالموافقة، ولم يكتف بذلك، بل عرض عليّ مشاركتي، ولكن على شرط واحد؛ وهو أن أبقى معه في المصنع، وأباشر المصنع الجديد في نفس الوقت، ويتم تعيين ولَدِه مدير مبيعات المنشأة الصناعية الجديدة، اتفقنا ووقّعنا العقد، وبدأتُ صفحة جديدة في حياتي ملؤها التفاؤل والأمل.

الفصل الخامس

علمتني الحياة أن الإصرار على النجاح يؤدي إلى النجاح، ومن إصراري على النجاح منذُ أن خرجتُ من بلدي مهزومًا تحاصرني النكسة، قررتُ ألّا أفشلَ أبدًا حتى ولو كان الثمن حياتي، وأن لا أعود مهزومًا قط، أنا مصريٌّ أصيلٌ وإسكندرانيٌّ عنيد، يجيد السباحة ضد التيار وفي أعتى البحار أمواجًا، متمكنًا من دفة شراعه، يعرف جيدًا ما سوف تأتيه به الرياح حين تغضب، وأُفضّل دائمًا السير عكس الاتجاه؛ ربما أجد طريقًا أفسح للنجاح، هذا أنا ولا أستطيع أن أكون غير ذلك.

بعد أحدَ عشرَ عامًا من هزيمة 1967، وتسع سنوات من الهجرة إلى أرض الفُرَص والأحلام أسّستُ مصنعًا تحت إدارتي وتصرفي، أطلقتُ عليه اسم "شامبيون"؛ لكي يكون رمزًا للمنافسة والتحدي، وبدأتُ تشغيلَ المصنعين وتوَلِّي المهمة الكبيرة، وأتذكر كمّ التعب والجهد والمعاناة التي عانيتها حتى أُثبِتَ وجودي ووجود "شامبيون"، ولكن الشجرة المثمرة تُقذَف بالحجارة، وبدأَت الحروب العائلية ضدي، قادها ابن صاحب المصنع وابنته وزوجها، جميعهم ضدي وضد نجاحاتي، على الرغم من المكاسب الكبيرة التي حققها المصنعان في ذلك الوقت، كان عليّ الصمود والتحدي، والهجوم خير وسيلة للدفاع، وبدأت الحرب أنا أيضًا، رتّبتُ أوراقي بمن أبدأ

أولًا، وعقدتُ العزم على زوج ابنة صاحب المصنع، كان ميكانيكيًا يعمل في المصنع، يجمع العمال ويحكي لهم كيف قضَى ليلة البارحة على فراش الزوجية، وعندما وصل إلى مسامعي هذا الكلام الجارح -وأنا محمد الشرقي- جُنّ جنوني، أتيتُ به إلى مكتبي وواجهته بما سمعت؛ فرد عليّ بأسلوب أحقر من فعله، وقال لي: "هذا ليس شغلك!" اندهشتُ من بجَاحته اللا متناهية؛ فجاء ردي بكلمة واحدة: "اطلَع برّة أيها الوغد"، ذهب لحماه شاكيًا له، استدعاني إلى مكتبه، وعندما سمع بما فعله صهره قال لي: "محمد، أنا أحترمك كثيرًا، وأثمّن لك موقفك هذا مع هذا الوغد، وأحترم قرارك في طرده، ولم يعد له مكان بيننا".

ولكن آثار هذه الحادثة كان كبيرًا على ابنة صاحب المصنع وأمها وأخيها عدوي اللدود، كثرَت المشاكل بيننا وتوالت التحرشات والمكائد النسائية والاتهامات ضدي وتصيّد الأخطاء، ومن هنا بدأتُ جديًا في ترك إدارة المصنع والتفرغ كليًا لمصنع "شامبيون"، وكان هذا التحدي الأكبر بالنسبة لي؛ هو وجود (روبرت) ابن صاحب المصنع في المصنع الجديد حسب الاتفاق بيني وبين أبيه (جاي مالتيس)، في الحقيقة الرجل كان يعرف ابنه جيدًا ويعرف مدى استهتاره، وكنت أعذره أحيانًا لأنه ابنه، ويريد أن يصنع منه رجلًا معتمدًا على نفسه، ولكنه فشل في ذلك، وعندما لاحظتُ انخفاض

إيرادات مصنع "شامبيون"؛ لأنه كان يشغل منصب مدير المبيعات، انتهزتُها فرصة لإزاحة ذلك اللعين من طريقي.

طلبتُ اجتماعًا عاجلًا لمناقشة فشل "شامبيون"، وجلسنا حول مائدة مستديرة جمعَت بيني وبين (شارلي) و(جاي مالتيس) وابنه (روبرت)، ووجهتُ حديثي إلى (مالتيس)، وقلت له لولا أنه ابنك لكنتُ طردته أو أعطيته راتب 10 دولارات فقط في الشهر، وبعد أن انتهيت من حديثي انتفضَ الابن ووجّه قِبلتَه إلى الباب، وطلب أن يفضّ الشراكة معي؛ لأننا الاربعة كنا شركاء في المصنع الجديد.

قدمتُ استقالتي من إدارة المصنع القديم، وبدأَت الحروب المستعرة لهيبها بيني وبين الأب وابنه من جهة وبين السوق من جهة أخرى، رفعا الكثيرَ من القضايا والاتهامات الملفّقة، وعندما ذهبنا إلى القضاء لم يصدق القاضي اتهاماته لي؛ لأنها من غير أدلة وغير مقنعة، وخسرَ جميع القضايا التي رفعها ضدي، ولي مع هذا القاضي حكاية سوف أقصها لاحقًا.

وفي يوم قررتُ أن أحلّ هذا الأمر بنفسي وأُوقف كل الحروب التي بيننا، وقمت بالاتصال به ودعوته على الغداء، وقلت له: "إننا لم نكن أعداءً، وأنا فعلتُ من أجلك الكثير، وعلينا أن نعقد اتفاقَ سلامٍ بيننا وننهي الأمر"، وافق وتم تحديد سعر المصنع ونصيب كل واحد من المشاركين، ونظرًا لارتفاع ثمن المصنع في ذلك الوقت عرضتُ عليه أن يشتري نصيبي وأخرج

أنا، لكنه رفض، عانيتُ كثيرًا حتى أتحصّل على المصنع أنا وشريكي ورفيق الكفاح (شارلي)؛ لندرة السيولة والتحديات التي واجهتنا مع السوق ولعبة الأسعار التي لعبها هو وابنه مع العملاء والتجار، ولكن الله دائمًا كان معي ببركة رضا أمي ودعائها لي.

عمال مصنع شامبيون

وأخيرًا في عام 88 تملّكَت "شامبيون" أشهر وأقوى مصانع الأصباغ في المنطقة آنذاك، واستمرّت عجلة الحياة وعجلة إنتاج (شامبيون)، وأصبحنا ملوك الأصباغ في الساحل الشرقي كله، وسُمعَتُنا سبقتنا إلى ماليزيا

وإندونيسيا ودول شرق وغرب وجنوب آسيا، وأصبحنا قبلتهم الوحيدة في الولايات المتحدة الأمريكية.

هنا توقّف الراوي عن قص تسلسل حكاية كفاحه، بعد سؤال وجهّتُه إليه:

- هل تعتبر نفسكَ ممن اغتنموا الفرصة في زمن الفرص الأمريكية؟
- الفرصة موجودة في كل زمان ومكان، وعلى الإنسان اكتشاف قدراته أولًا قبل أن يفكر في اغتنام أية فرصة، ومن خلال تجربتي الطويلة مع الحياة رأيتُ أشخاصًا كثيرة جاءت لهم الفرصة على طبق من ذهب، ولكنهم ضيّعوها؛ لأنهم ليس لديهم حافز الإصرار والتحدي وروح المنافسة الشريفة التي تعطِي للحياة الإحساس بالوجود.

التنين الصيني وتأثيره على الاقتصاد الأمريكي

قانون (نافتا)

كان لوقع اتفاقية التجارة الحرة بين أمريكا وكندا والمكسيك، المعروفة باسم "نافتا"1993 North American Free Trade (NAFTA) Agreement عظيم الأثر على الصناعة والمصانع في أمريكا الشمالية وعلى الاقتصاد الأمريكي عمومًا بمكاسب "نافتا" بالنسبة للاقتصاد الأمريكي أكثر بكثير من مساوئها، وعلى الرغم من تضرّر مصانع النسيج وعدد كبير من مصانع السيارات ومصانع الأجهزة الكهربائية نتيجة ذهاب هذه المصانع إلى

المكسيك للاستفادة من رخص الأيدي العاملة هناك وعودة هذه المنتجات إلى الولايات المتحدة دون جمارك، وكذا الحال في كندا، وإذا حدّدنا المتضرّر الأكبر من هذه الاتفاقية من وجهة نظري -كرجل صناعة- دولة المكسيك؛ الحديقة الخلفية للولايات المتحدة، وأيضًا سلة المهملات لها، وبذلك سيطر رجال الأعمال الأمريكيون وطبقة الاحتكارية المكسيكية، واستحواذهم على سوق الصناعة وفساد حكومي مستشرَى، وكان لنشاط حركة البضائع في الموانئ والمطارات نتائج كبيرة ساعدت على نمو تجارة المخدرات، وزادت عمليات التهريب إلى ضعف ما كانت عليه.

إذا نظرنا عن هدف الاتفاقية من البداية نجده هو الحد من عمليات الهجرة غير الشرعية التي تعاني منها أمريكا في حدودها مع المكسيك، ومراقبة عصابات الإتجار بالبشر، وذلك بنهضة الصناعة في المكسيك وتشغيل آلاف العاطلين عن العمل، ولكن للأسف الأمر ازداد سوءًا، والسمك الكبير ما زال يأكل السمك الصغير دون رحمة أو شفقة، واستفادت الولايات المتحدة وكندا من هذه الاتفاقية أكثر من شريكهم الثالث المكسيك؛ حيث نمت المبادلات التجارية وتطوّرَت قيمتها بين الدول الثلاث بجانب هيمنة صادرات دول المجموعة في الأسواق العالمية مع تزايد حجم الاستثمارات في محيط هذه الدول، ورغم ذلك تبقَى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر بلدان

المجموعة استفادةً من الحركية الاقتصادية والمالية، متبوعة بكندا في المرحلة الثانية، ثم المكسيك في المرتبة الثالثة.

ونرى تجلّي الظلم والتوزيع الغير العادل للثروة بين الثلاث دول في قيمة ازدياد المبادلات التجارية بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا؛ حيث كانت أكثر من 400 مليار دولار، في الوقت الذي لا تتعدّى قيمة المبادلات الأمريكية المكسيكية 150 مليار دولار، والكندية المكسيكية 50 مليار دولار، ويتنقّل الأشخاص بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا بكامل الحرية، بينما توجد حدود مراقبة بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك.

قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإنشاء شركات متعددة الجنسية لمقاولات صناعية؛ منها مجموعة (ماكي دوراس) على حدودها مع المكسيك؛ لتشغيل اليد العاملة المكسيكية بأجور ضعيفة ولساعات عمل طويلة، وتصدير هذه المنتجات إلى الأسواق الأمريكية، وقامت بإنشاء الممرات التجارية في شمال أمريكا، التي عملَت على تعزيز البنيات التحتية ونمت بذلك المبادلات التجارية، وعلى الصعيد الآخر قامت بإغراق الأسواق المكسيكية بالمنتجات الفلاحية والصناعية الأمريكية، ونتجَ عن ذلك توقّف الإنتاج المحلي وتعرُّض المستثمرين المكسيكيين إلى الإفلاس والبيع القسري لممتلكاتهم للشركات المتعددة الجنسية.

وفي رأيي المتواضع لم يصل الاندماج بين دول مجموعة أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة الأمريكية) وكندا والمكسيك إلى مستوى الاندماج العميق الذي تشهده بلدان الاتحاد الأوربي على سبيل المثال.

إضراب عمال المصنع 1993

في عام1993 وقع اضطرابٌ كبيرٌ في مصانع أمريكا نتيجة قانون (نافتا)، والذي نتج عنه إضراب عام في مصانع كثيرة على مستوى الولايات، وأكثر المصانع تضرّرًا بهذا القانون مصانع النسيج ومصانع السيارات؛ نتيجة لقلة الصادر وغلوّ ثمنه، وكثرة الوارد الذي ينافس المنتج المحلي بأسعار رخيصة تسابق عليها المستهلكون، وفي هذه الأجواء الخانقة على الاقتصاد والسوق وتباطؤ عجلة الإنتاج الداخلي طالبَ العمال بزيادة أجورهم وتأمينات صحية غير مناسبة، ورفع استحقاقات التقاعد والمعاشات، وفِي الحقيقة لم أكن المصنع الوحيد ضمن مجموعة مصانع النسيج الذين حدث لهم ذلك، كان هناك عشرات المصانع التي أضربَ عمالها عن العمل، واحتموا باتحاد العمال الذي يعتبر أكبر قوة عمالية ضاغطة وصاحبة نفوذ وسلطان على أصحاب المصانع، وعندما تحديتهم ورفضتُ الرضوخ لمطالبهم قاموا بسد الطريق وإغلاق المصنع، وكان عددهم ١٢٠ عامل، فكرتُ في طريقة أخرجُ بها من هذا المأزق الكبير؛ فخطَرَ إلى ذهني فكرة

جهنمية؛ وهي أن أُحضِر عمالة مصرية تدير المصنع ليلًا؛ لأن ساعات الإضراب كانت صباحًا، وبالفعل كانوا يعملون من السادسة مساءً حتى الرابعة صباحًا؛ لكي أوفِّي بالطلبات التي كنتُ قد اتفقتُ عليها قبل الإضراب، ولَم أكتفِ بذلك؛ بل أخذتُ العمال المضربِين إلى المحكمة وأيضًا اتحاد العمال، واتهمتهُم بالابتزاز وتعطيل عجلة الإنتاج، وطالبتُ القاضي بحماية المصنع وعمّاله الجدد من أذاهم في حالة التعرض لهم، وبالفعل كسبتُ القضية وجاء الحكم لصالحي، وحُكِم بأن يقِفُوا على جانِبَي الطريق إذا أرادوا الاستمرار في إضرابهم؛ لأن هذا حقهم، وهنا تدخّل البوليس لتنفيذ حكم القضاء وحماية المصنع وعمال المصنع الجدد، وانتهت الأزمة بسلام وأنا في قمة الفخر والاعتزاز بنفسي، وببركة رضا أمي ودعواتها لي.

أشعر بالحياة عندما أرى ماكينات المصنع دائرة

وفاة شريكي ورفيق كفاحي

صديقي الصدوق (شارلي) لم يكن بالنسبة لي شريكًا في المصنع أو المدير العام له، ولكن كان رفيق درب وشريك كفاح وأخلص المخلصين وأقرب المقربين، كان لي الأخَّ الذي لم تنجبه أمي، وشعاع النور الذي ظهر في نفق غربتي، والأمل المتجدّد في سماء أحلامي، تمثّل في ذلك الرجل المسيحي الديانة عظيم النبل والإخلاص، ومثلٌ حيّ على التفاني في العمل وصاحب صاحبه، ورجل المواقف الصعبة؛ فلم يسألني يومًا ماذا أفعل؟ ولَم أسأله يومًا ماذا هو بفاعل؟

وعلى الرغم بأننا لا ننتمي إلى نفس الدين ولم نولد على نفس الأرض وتحت نفس الشمس، ولا نتكلم نفس اللغة، ولكن كنّا إخوة في الإنسانية، وفي يوم رحيله كنت معه.. أُمسَكَ يدي ونظر إلى عيني، وقال لي: "محمد، لقد أحببتُكَ كأخٍ واتخذتُكَ صديقًا حميمًا، ولَم تفرّقنا يومًا السياسة أو الدين أو حتى مصالحنا؛ فكنتُ لكَ خيرَ معين، وكنتَ لي خير صديق".

رحل عن دنيانا ذلك الرجل الطيب في خريف 1994، وتركني أعاني ألم فراقه ودخلت في حالة اكتئاب طويلة، بدأ المصنع خلالها في التنازل والتراجع وعدم القدرة على منافسة السوق المتهاوي أصلًا بفعل الحالة الاقتصادية.

شارلي ومجموعة من أصحاب المصانع ورجال الأعمال

ولأنني مؤمنٌ بالأقدار وأننا من التراب وإلى التراب سنعود وإنا لله وإنا إليه راجعون، بدأتُ تدريجيًا أنتبه لنفسي ولمصنعي، وتغلّبتُ على اكتئابي وحزني ونهضتُ لإنقاذ ما يمكن إنقاذُه من المصنع.

فكرتُ في عمل شيءٍ جديدٍ يواكب متغيّرات السوق، قلتُ في نفسي "لماذا لم أفتح شركة جديدة لبيع منتجاتي بدلًا من بيعها لحساب الغير؛ أشتري القماش ثم أصبغه ثم أبيعه لحسابي"، بالفعل أسستُ شركة أطلقت عليها مجموعة (M)، وكان هذا قبل وفاة شارلي بستة أشهر، ولكن بسبب حزني عليه لم يكتمل المشروع بعد ولم أسعى فيه بجدية.

وسر هذه التسمية يرجع إلى الحروف الأولى لأسماء عائلتي؛ وهم (ميرفت زوجتي، ومها ومنى بناتي، وأنا محمد)، كان هذا عام 1994، نجحت الشركة ولكن بتعثّر بفعل متغيرات السوق نظرًا لغلاء الأقمشة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والتي كانت تُصنَع في ولاية (نورث كارولينا) الأشهر على الإطلاق في صناعة الأقمشة، وتأثير قانون (نافتا) على الصناعة، وأيضًا فتح باب الاستيراد من الصين الذي ضَرَبَ الصناعة الأمريكية في مقتل وفِي عمق، وقضى على الأيدي العاملة الأمريكية.

مع بيني ونزار ورحلة عمر بدأت في "شامبيون"،

واستمرت إلى الآن في مجموعة M

على أثرها أُغلقت المصانع، والمعروض في السوق كان غاليَ الثمن، وبناء على طلب العملاء بدأتُ أستورد الأقمشة من الصين وأصبغها في مصنعي، وأبيع لحساب مجموعة (M)، وأحيانًا كنتُ أشتريها مصبوغة جاهزة وبسعر أرخص بكثير من تكلفة إنتاجها في أمريكا، وبدأَت تنهالُ الطلبات للمستشفيات والفنادق الكبرى وأيضًا المحلات التجارية الكبيرة، واجتاحَت المنتجات الصينية أمريكا أقوى وأكبر دولة صناعية في العالم، ولا عزاء للعمال المَهَرَة أو رواد الصناعة على وجه الكرة الأرضيّة؛ بسبب اتفاقية التجارة الحرة التي -وكما أشرت من قبل- أن لهذه النوعية من الاتفاقيات آثارها السلبية

وآثارها الايجابية، ومن أهم مميزاتها هو إنعاش الاقتصاد الأمريكي، وتسهيل مهمة جَنْيِ الضرائب من الشركات المتعددة الجنسية، وأيضًا من المستثمرين.

انهيار صناعة النسيج في أمريكا وصعود مجموعة M

بعد انهيار صناعة النسيج في أمريكا بالكامل، وإغلاق أكبر مصانعها في (نورث كارولينا) وتسريح العمال، وبعد نجاح مجموعة "M" في الاستيراد من الخارج -وبالأخص دول شرق آسيا والصين- أصبح لها اسمٌ في السوق، فكرتُ جدّيًا في إغلاق المصنع؛ لأن الزمن أصبح ليس زمانه، وأن دوره قد انتهى بفعل السياسات والقرارات الاقتصادية الخاطئة التي اتُّخِذَت بسبب الحروب، وأتمها الرئيس (بيل كلينتون) بقانون (نافتا)، وختمها خلفه الرئيس (أوباما) بدخول أمريكا إلى اتفاقية التجارة الحرة التي قضَت على صناعة السيارات في أمريكا، وخربِ ماكينة دائرة عليها عاملٌ لا يقدّر بثمن.

احد شهادات التقدير من المجتمع الصناعي في أمريكا

ذات يوم جاء إلى مكتبي أحدُ مُلّاك مصانع الصباغة الذي تعثّر أمام سد مديونياته، وعرض عليّ أن ندمج المصنعين معًا في شراكة جديدة؛ لكي ننهض بصباغة النسيج مجددًا، ولكني لم أحبّذ الفكرة، وعرضتُ عليه فكرة أخرى؛ أن يشترِيَ هو ماكينات المصنع وينقلها إلى مصنعه ويشغّلها عماله، وأنا أدير المصنع وأكونُ شريكًا في نفس الوقت، واتفقنا على ذلك وبدأ الإنتاج بطيئًا والطلب على منتجات المصنع ضعيفًا نتيجة لهجوم التنين الصيني على المصانع في أمريكا، ونتيجة لقلة السيولة وقلة الإنتاج، بدأَت علاقتي به تتأزّم، وبدأ هو بالتلاعب والتحايل لاستغلال اسمي النظيف وتاريخي المِهَنِي المشرف، وساءت علاقتي به أكثر، قررتُ فضّ الشراكة، وانتهَت الحكاية بإغلاق المصنع وبيع بمعداته، وأخذتُ نصيبي وهو سدد ديونه؛ فوافق مرغمًا.

الفصل السادس

الاتحاد الإسلامي الأمريكي (AMU)

في منتصف التسعينيات أصبح اسم محمد يونس رجل الصناعة الأول من ألمع الأسماء في عالم الأقمشة والأصباغ، وبالتالي أصبحتُ هدفًا لمرمى السياسة والسياسيين، بطبيعة الحال وكما جرى العرف في كل بلاد الدنيا؛ المال والسلطة وجهَانِ لعملة واحدة، كلٌّ منهما يبحث عن الآخر ليستمد القوة والاستمرارية من بعضهما البعض؛ لكي يبقوا أحياءً على أشلاء المجتمع.

تلقيتُ أول دعوة لحضور حفل لصالح الحملة الانتخابية لأحد رجال الكونجرس الأمريكي عن ولاية (نيوجيرسي) يُدعَى (بيل باسكريل)؛ أمريكي من أصول إيطالية، تربّى وترعرع في مقاطعة باسيك والتي يسكنها الكثير من العرب وأغلبهم من الفلسطينيين، عندما ذهبتُ إلى الحفل لم أجد أي أحد من العرب، وبُهرت بوجود اليهود وتنظيمهم، حتى في طريقة

جلوسهم حول الطاولات؛ كانت منظمة جدًا وبذكاء سياسي، رأيتُ كل مجموعة منهم تجلس مع كل سياسي على طاولته يأمرُون؛ فيستجاب لهم.

خرجتُ من هذا الحفل أسأل نفسي: "أين نحن العرب المسلمين من هذا الحفل؟"، ذهبتُ على الفور إلى المركز الإسلامي؛ المكان الوحيد الذي يجتمع فيه أكبر عدد من المسلمين خمس مرات في اليوم، وهي أوقات الصلاة وأيام الجمع.

قابلتُ الإمامَ وحكيتُ له عن ما رأيتُ وعن تحكم اليهود في صانعي القرار، وعرضتُ عليه فكرة إنشاء تجمّع سياسي إسلامي على غرار ما يسمّى اللوبي اليهودي ندخل به عالم السياسة، وبالفعل بدأتُ مع مجموعة من المسجد، وسجّلتُ أول جمعية سياسية إسلامية عام 1998، وأطلقتُ عليها اسم **"الاتحاد الإسلامي الأمريكي AMERICAN MUSLIM UNION"** الهدف الأول من إنشائها هو الاهتمام بالشأن السياسي للمسلمين وليس الشأن الديني؛ فالمسلمون في أمريكا يصلُ تعدادهم إلى ملايين مضاعفة بالنسبة لعدد اليهود، لكن مكاسبهم على الأرض أكبر وأقوى؛ فمثلا تُغلَق المدارس والمصالح الحكومية والبنوك في أعياد اليهود أجازة مدفوعة الأجر، وكان هذا الأمر يثير حفيظتي، ليس حقدًا عليهم ولكن حزنًا على حال المسلمين المنقسمين في كل مكان داخليًا وخارجيًا.

أُقِيم أول حفل تحت اسم "الاتحاد الإسلامي الأمريكي" في منزلي ومعي المجموعة المؤسسة من المسجد وبعض رجال الأعمال وبعض الأطباء، ودعوتُ إليه عضو الكونجرس (بيل باسكريل) المسيطَر عليه من قِبل جماعات الضغط الصهيونية، وجمعتُ له التبرعات من أجل حملته الانتخابية، ومن يومها توطّدَت العلاقة بيننا وأصبح صديقي المقرب، وفي الحقيقة تحمّسَ معي الكثير من مسلمي الولاية، سواء كانوا عربًا أو غيرهم من الهنود والباكستانيين وجنسيات أخرى، وبما أنّنا مسلمون وبدأنا في تجميع أنفسنا وتوحيد صفوفنا بدأَت الحروب ضدّنا تتصاعد وتأخذ منحنى كبير وخطير، خصوصًا في أعقاب أحداث سبتمبر المؤلمة.

علاقتي مع الكنيسة المصرية والبابا شنودة

كانت وما زالت علاقتي جيدة بالأخوة المسيحيين، حتى من قبل مجيئي أمريكا، لي أصدقاءٌ كثُر من أيّام المدرسة والجامعة، وكنت أذهب معهم جمعية الشبان المسيحيين بالإسكندرية، وصنعوا لي عضوية معهم، وهذه العضوية أفادتني، بل وأنقذتني عندما جئتُ وحيدًا لا أجد مكانًا أنام فيه غير جمعية الشبان المسيحية الأمريكية المعروفة باسم (YMCA) وهاجر معي الكثير مثلي، تفرّقنا وذهب كلٌّ منا إلى طريق، نجحوا في حياتهم وتقلّدوا مناصب مرموقة؛ منهم الطبيب والمهندس والعالم في مجاله، والجميع من مسلمين

ومسيحيين نجحوا، وقد أشرتُ من قبل إلى العالم الكبير فاروق الباز، ولا ننسى الدكتورة فاطمة عليم، وغيرهم من العقول العلمية التي هاجرَت في تلك الفترة هربًا من الهزيمة وخوفًا من المستقبل المجهول، وأنا على اتصال بالأحياء منهم إلى الآن.

قنصل مصر السابق في نيويورك السفير (شريف الخولي) والبابا شنودة

ظلَلتُ حريصًا طوال هذه السنوات أن لا أقطع علاقتي بالكنيسة، دائم التردد عليهم في المناسبات والأعياد لتهنئتهم، حتى في أيّام الأزمات الكبرى؛ مثل أحداث الزاوية الحمراء أيّام السادات، وأيضًا أحداث الكشح أيّام مبارك، والمناوشات الطائفية التي تقع هنا وهناك، والحادثة الشهيرة لمقتل

أسرة مسيحية ذُبِحَت في منزلها في مدينة (جيرسي سيتي)، واتُهم فيها المسلمِين بذبحهم وقامت الدنيا ولم تهدأ، ولكن شرطة المدينة قبضَت على الجناة في وقت قياسي، وكانوا عصابة مجرمة تورّطَ معهم رب الاسرة؛ فقاموا بذبحه هو وزوجته وأبنائه.

مع الأب موسيس بغدادي في أحد إفطارات رمضان في المسجد

لَم أتخلَّى عن دوري أبدًا كرجل عاقل ومن قُدامَى المهاجرين تدفعه وطنيته وإنسانيته ودينه إلى تهدئة النفوس بين الجانبين وعدم إشعال النيران؛ لأننا كلنا خاسرون، وقفتُ بجانب الجالية المصرية بمسلميها ومسيحييها، وهذا ما جعل مني صديقًا مقرّبًا للكنيسة ولقداسة البابا شنودة، جمعَتْني به صداقة من نوع فريد سماتها الاحترام والإعجاب الشديد بشخصه، لم يخلُ لقاءٌ معه إلا وسيطرَت روح الدعابة والفكاهة على الحضور، كان غزيرَ الثقافة وشاعرًا متمكنًا من القافية ومن اللغة، ويملك أدوات التأثير على الجماهير، تشعرُ عند مجالسته أنكَ تجلس مع مواطن مصري أصيل وبسيط، ومصر حقًا بداخله وداخل المصريين؛ وطنٌ يعيش فينا وليس وطنًا نعيش فيه.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001

في يوم مشرق استيقظتُ صباحًا كعادتي أستعد للذهاب إلى عملي، ومع ارتشافِ أول رشفة من فنجان قهوتي انقلبَت الدنيا فجأة رأسًا على عقب، بدأَت الأخبار تتوالَى في الإذاعات وعبر التلفاز عن وقوع هجوم واصطدام طائرة ركاب مدنية بأحد أبراج مركز التجارة العالمي، ولم تتعدَّ دقائق أخرى حتى رأيتُ الاصطدام الثاني بالبرج الثاني وشاهدتُ الحدث تلفزيونيًا، ولأول مرة في حياتي أُكذّب عيني، ولم أصدق او حتى أتخيل ما يحدث أمامي،

فهل أنا في حلم أم في علم؟ حقيقة أم خيال؟ ومع أنباء خطف طائرتين إحداهما سقطَت على البنتاجون والثانية وقعت في أحد المزارع في ولاية بنسلفانيا، أيقنتُ أنني في كابوس، وأن ما أراه حقيقة مؤلمة سوف تُوجّه أصابع الاتهام فيها إلى كل العرب والمسلمين، وليس إلى من فعلوها فقط!

استوقفتُ الكيميائي محمد يونس وسألته:

- هل توقعتَ أنت الآخر أن من فعلوها سوف يكونوا عربًا مسلمين؟
- لحظتُها تمنيتُ ألّا يكون كذلك، وأيضًا محاولة تفجير مركز التجارة العالمي عام 93 من قِبَل جماعة الشيخ عمر عبد الرحمن أوغَرَّ الشك في قلبي وعزّزَ من قلقي، ولكني تمالكتُ نفسي وتأهّبتُ لمواجهة المصاعب والتحديات، ليس فقط كوني رجل أعمال لي مصالح وعلاقات، ولكن لكوني أقودُ منظمة إسلامية تتكلم باسم المسلمين.

أكمل حديثه.. وكمَا توقعتُ تلقيتُ أول اتصال هاتفي من أرفع مسؤول أمني في جهة أمنية عليا في الولاية؛ مدير الأمن الداخلي، أخبرني أنه يريدُني معه أثناء فتح شقة المشتبه بهم الواقعة في منطقة (باترسون) المكتظة بالعرب والمسلمين، وقبل أن أجيبه سألته "لماذا اخترتني لهذه المهمة؟"؛ فأجابني: "أولًا: أنتَ شخصية عامة وصاحب مصنع، وربما أتى أحدُهم إليكَ باحثًا عن عمل، ثانيًا: أنت رئيس منظمة إسلامية وليس حولك أية شكوك أو علاقات بمنظمات إسلامية مشبوهة، بالعكس نعرف عنك أشياء كثيرة

حسنة، وأيضًا لك علاقة بالمركز الإسلامي لمقاطعة (باسيك) وأحد أعضاء البورد المسموع له كلمة، ووجودك معنا سوف يفيدنا في التوصّل لهوية الجناة؛ ربما قد تكون رأيتهم في المسجد، وهناك شيء مهمٌّ نودّ أن نخبرك به؛ وهو أنكَ رجل موثوق به حسب التقارير ومتدين، ولكنك لستَ متشددًا ولن تنكر شيئًا تعرفه أو معلومة توصلنا للحقيقة؛ فالخيانة ليست من طبعك".

بعد كلام رجل بحجم (جون بيج) تشجّعتُ للذهاب معهم، وبالفعل ذهبنا إلى شقة المتهمين في حادث البرجين، ولم نجد أدلة تثبت إدانتهم، بعد ذلك شاهدتُ فيديو مسجّلًا لهم عن طريق كاميرات الحانة الذي قيل أنهم سهروا فيها قبل الحادثة بيوم واحد، ووجدتُ في الفيديو شبابًا منحرفًا يشربون الخمر ويرقصون مع العاهرات حتى الساعات الأولى للنهار، في الحقيقة لم أتعرّف عليهم ولم أرَهُم من قبل؛ سواء في المسجد أو خارجه، على الرغم من ملامحهم الشرقية، بل نفيتُ تمامًا أنهم من فعلوا هذه الجريمة، وحجتي في هذا جاءت مستندة على حقيقة في الإسلام؛ وهي: كيف لمسلم أن يشرب الخمر ويجالس العاهرات وهو يعلم أنه سوف يموت بعد ساعات ويواجه ربَّ كريم حرَّم هذه الأفعال بنص قرآني؟! وأخبرتهُم برأيي دون خوف أو مجاملة، أو حتى تردد، فقلت لهم: "ابحثوا عن الجناة الحقيقيين وراء تلك الحوادث في مكان آخر".

بدأتُ أُعِدُّ الاتحاد الإسلامي لمواجهة أصعب الظروف التي سوف تواجه مسلمِي الولاية، أعددنا خطة عمل للتواصل مع الجمعيات الأهلية والمنظمات الإسلامية والمراكز الدينية، وطلبت منهم أن لا يتكلم أحدٌ من المسلمين مع (إف بي أي) إلا في وجود محامٍ، خصوصًا بعد وقوع حادثة شهيرة عندما اقتحمَ رجال المباحث منزل رجل تركيّ اشتبهوا فيه، وقد منعهم من دخول البيت قبل أن يعطوه مهلةً وأمرهم بخلع أحذيتهم؛ فرد أحدهم عليه وقال له: "لو خلعتُ حذائي سوف أضعه في فمك"، ووقعت مشادّة بينهم فقام بطردهم، وجاء الرجل مهرولًا إلى المسجد ليحكي ما حدث له لعله يجد من يساعده أو يرشده لرد اعتباره.

بدأنا في تنظيم صفوفنا واستبقَتْنا الأجهزة الامنية في الولاية ودَعَتْنا إلى مقر المباحث الفيدرالية، ذهبت ومعي محامي الاتحاد الإسلامي، وعلى ما أذكر كان هذا اللقاء في اليوم الرابع من الحادثة، دخلتُ قاعة اجتماعات كبيرة يجلس فيها 400 شخص يحملون الأسلحة المدجّجة، ومن رهبة الموقف هُيِّئَ لي أنهم ينظرون إليّ وكأنني أنا من فعلها، وقدّمَني إليهم رئيس (إف بي أي) وقال: "محمد يونس رئيس الاتحاد الإسلامي الأمريكي"، بدأَت رهبتي بالموقف تهدأ وتقل، وطُلب مني أن أُلقِي كلمة؛ فصمتُّ قليلًا وتكلمتُ بعدها وقلت لهم: "لا تنظروا لي هكذا؛ فأنا هنا للمساعدة ولست متهمًا كوني

عربي مسلم، نحن بشر من آدم وحواء، وقبل ان نؤمن بهذا الدين او ذاك فكلنا أولاد إبراهيم."

أشرتُ إلى حادثة الرجل التركي وقصة الاعتداء على منزله، وشرحت لهم أن للمسلمين على اختلاف أعراقهم وأصولهم لهم عادات وتقاليد خاصة، ويجب أن تُحتَرَم؛ فمثلا عندما طلب الرجل التركي من رجال المباحث خلع أحذيتهم قبل دخولهم منزله فهذا ليس تقليلًا من شأنهم أو إهانة متعمدة، ولكن لسبب مقبول ويجب احترامه؛ وهو أن المسلمين يصلُّون على الأرض في بيوتهم خمس مرات في اليوم، ويركعون لله الواحد الأحد، منهم من يضع سجادة صلاة ومنهم من يصلّي على سجاد بيته، ولا يجب أن يمشي أحد عليه بحذائه، وحتى لا تُعتبر إهانة أو تقليلًا من شأن أحد؛ فعند دخولكم لبيوت المسلمين ضعُوا في جيوبكم اثنين من الأكياس البلاستيكية لتُلبَس على أحذيتكم قبل الدخول، وأيضًا هناك شيءٌ مهمٌ لابد من الإشارة إليه، وهو أن الكثير من النساء المسلمات لا يَظهَرْن على غريب؛ فلابد أن يضَعنَ حجابهن قبل خروجهن إلى الغرباء، وعند دخول بيوت المسلمين لابد من إعطائهم فرصة حتى يغطّين رؤوسَهُن، وهذا حق مكتسب نصّ عليه الدستور الأمريكي في حرية التعبير عن العقيدة وممارسة الشعائر الدينية.

بعد انتهَت المقابلة وذاع صيتها بين الأوساط الأمنية قرر المسؤولون عقدَ سلسلة من المحاضرات تُلقَى على رجال الأمن في الولاية وضباط البوليس

وأفراد الشرطة عن كيفية التعامل مع الأسر المسلمة، وعن كيفية احترام خصوصيتهم، ومعظم المحاضرات كانت على هيئة حلقات نِقَاش أخذَت شكل أسئلة عن الإسلام وعن الحياة الاجتماعية للمسلمين وعن تقاليدهم وعاداتهم المختلفة، وكما هو معروف المسلم التركيّ يختلف عن المسلم الهندي أو الباكستاني أو العربي؛ فكلٌّ منهم تراثه المختلف الذي لابد وأن يحترم، ساعدَنِي في هذه المهمة عددٌ كبير من المثقفين المسلمين من مختلف الأقليات المسلمة، ومنهم المحامي (صهيل محمد) الهندي الأصل، والذي أصبح بعد ذلك أولَ قاضٍ فيدراليّ مسلم في ولاية (نيو جيرسي)، استمرَّت هذه المحاضرات لمدة أربعة عشر أسبوعًا، في الحقيقة تركنا أعمالنا وبيوتَنا ومصالحَنا من أجل هذه المهمة، كان هدف الاتحاد آنذاك هو الحفاظ على أمن المسلمين في ولاية (نيو جيرسي) قبل أمن الولاية نفسها، وعرفنا لاحقًا أنّ مرتكِبِي هجوم سبتمبر الدامي طلبةٌ كان يدرسون الطيران في أمريكا، وهذا يعني أن هناك تقصيرًا أمنيًّا من السلطات ولا يجب أن يدفع ثمنه مسلمو أمريكا كلهم.

انضم إلى الاتحاد الإسلامي الأمريكي خمسة عشر مركزًا إسلاميًّا يمثلون مساجد (نيو يورك) و(نيو جيرسي)؛ حيث يتردّد على هذه المساجد الآلاف من أبناء الجالية المسلمة على اختلاف جنسياتهم، وكنا أحد أهم الجمعيات التي يتّجِه إليها المسلمون عندما يتعرّضون لأي نوع من الأذى والاضطهاد، أو التوقيف من الجهات الأمنية، سواء كانوا من المباحث الفيدرالية أو من الشرطة، وكنا نمدّهم بالمحامين ومساعدة عائلاتهم وإرشادهم إلى كيفية التعامل في مثل هذه المواقف.

بالطبع كان هدف من أهداف الاتحاد منذ تأسيسه هو إدماج المسلمين في الحياة الأمريكية في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين الأمريكيين، بدلًا من التقوقع داخل الذات بحجة المحافظة على التقاليد والعادات، ووضعنا خطة للارتقاء بهم وحمايتهم من محاولات التمييز والتهميش، وذلك عن طريق:

1. تثقيف المجتمع الأمريكي المسلم عن طريق عمل دروس توعية لتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم.
2. الاندماج في المجتمع الأمريكي عن طريق المشاركة السياسية، ويكون ذلك بالانضمام إلى أحد الأحزاب والدفع بوجوه مسلمة للترشح في الانتخابات.
3. فتح باب النقاش والحوار بين المسلمين بعضهم البعض لإذابة الخلافات بينهم، وتشجيعهم على العمل التطوعي وإنشاء منظمات أهلية وأخرى سياسية لخدمة المجتمع المدني، ولإظهار الروح السمحة لديننا العظيم.

استمرَّت أنشطة الاتحاد ولقاءاته وعقد مؤتمرات سنوية بدأت عام 1998 قبل هجوم سبتمبر وحتى آخر مؤتمرين في 2017: 2018، واللذان عُقِدَا في أجواء سياسية صعبة ومتوترة جدًا بسبب انتخاب (دونالد ترامب) وفوزه بالرئاسة؛ حيث عبّرَ المسؤولون في كلماتهم أمام الحضور عن تضامنهم الكامل مع المسلمين حتى لو كلفهم تضامنهم هذا مناصبهم، وهذا التضامن جاء من إيمانهم القوي بمبادئ الدستور الأمريكي الذي يضمن المساواة والحرية لجميع المواطنين باختلاف عقائدهم وألوانهم وألسنتهم.

جرَت العادة أن يُدعَى في مؤتمرات الاتحاد السنوية كل الأجهزة الأمنية في الولاية بداية من حاكم الولاية الى أصغر ضابط بوليس، حتى رجال المطافئ وأعضاء الاتحادات العمالية والتعليمية ومنظمات حقوقية وسياسية، علاوة على أعضاء الحزبَيْن الجمهوري والديمقراطي.

قانون الحلال فوود أهم إنجازات الاتحاد الإسلامي الأمريكي

بدأَت تظهر إنجازات الاتحاد الإسلامي الأمريكي على صعيد مسلمِي الولاية؛ حيث استطعنا بعد مجهودات جبارة أن نحصل على حق من حقوقنا، ألا وهو (قانون الحلال)، وهو قانون يُلزِم أصحاب متاجر بيع اللحوم والطيور أن يقدّموا أوراقًا تُثبِت أنها مذبوحة على الطريقة الإسلامية بعد أن كانت تُباع للمسلمين بدون أي رقابة صحية أو قانونية، واستغل الكثير من التجار حاجة المسلمين للذبح الحلال وبِيعَت لهم لحومًا غير شرعية على أنها لحوم حلال جمعوا من ورائها ثروات طائلة، وهذا لا يقتَصِر على المنتجات الحيوانية فقط، ولكن ينطبق على المنتجات الغذائية من الألبان والأجبان ومشتقاتها، ولابد أن تكون خالية من دهون الخنزير أيضًا؛ فلا يصح أن يكتب عليها حلال وهي غير كذلك.

Halal food

is that which adheres to Islamic law، as defined in the Koran. The Islamic form of slaughtering animals or poultry، dhabiha، involves killing through a cut to the jugular vein، carotid artery and windpipe.

Animals must be alive and healthy at the time of slaughter and all blood is drained from the carcass.

في شرح موجز فيما تفعله الحكومة الأمريكية في الكشف عن اللحوم الحلال والمنتجات الغذائية؛ فلابد أولًا أن تخصّص المال اللازم لتحقيق هذا الغرض، وتفتح قِسمًا جديدًا في وزارة الصحة التابعة للولاية لإعطاء تراخيص لمتاجر بيع هذه المنتجات الحيوانية والنباتية وتوظيف أطباء بيطريين مؤهلين للكشف عن هذه الأغذية واللحوم، ويتم سنّ قوانين جديدة تحاسب التجار المخالفين، فهذا ليس سهلًا كما يعتقد البعض؛ لأن هناك بالفعل مَن يراقبون على الأسواق من قِبَل وزارة الصحة للحفاظ على صحة المواطنين الأمريكيين ككل وليس جزءًا منهم، ولكن أن تزيد الحكومة من أعبائها وتفتح قِسمًا جديدًا لحماية المسلمين والحفاظ على صحتهم، وأيضًا احترام عقيدتهم وتخصيص الأموال اللازمة لهذا الغرض، فأنا أعتبر أنّ هذا العمل إنجازًا كبيرًا للاتحاد الإسلامي الذي أسّسْتُه من أجل مسلمي الولاية، وقد تعلمتُ منذ صغري أنه لا يضيع حقٌّ وراءه مطالب، ولذلك طالبتُ بهذا الحق المكتسب؛ فهذه هي أمريكا التي تحترمُ القانون والدستور الذي ينصّ على حرية الاعتقاد وحرية التعبير عن الرأي وممارسة الشعائر الدينية بكامل الحرية.

دراسة استقصائية عن حال المسلمين في أمريكا مقارنة بمسلمي أوروبا

دراسة استقصائية أعدّها مركز pew للأبحاث عن المسلمين الأمريكيين من أصحاب الطبقة الوسطى، والتي كشفَت النّقابَ عن مدى سعادتهم بحياتهم على الأرض الامريكية، وفي الوقت ذاته أشارت دراسة استقصائية أخرى أُجرِيَت على كل المسلمين بجميع طبقاتهم؛ فكشفت على أن 53٪ منهم يواجهون مشاكل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر لكونهم مسلمين، على سبيل المثال:

١ - 19٪ يعانون التمييز الديني.

٢ -12٪ يُنظر لهم على أنهم إرهابيون.

٣- 13٪ يجهلهُم الآخر ولا يعرف شيئًا عن الإسلام.

٤ - 12٪ وُضِعوا في قوالب نمطية على أساس دينهم

علاوة على ذلك يعتقد أكثر من 54٪ من المسلمين أنهم مُرَاقَبُون من قبل الحكومة الأمريكية تحت مسمى مكافحة الإرهاب، وكشفت الدراسة أيضًا أن 73٪ من الشباب المسلم الأمريكي الذين يتراوح أعمارهم بين (18- 29) يتعرّضُون للتميّز في حياتهم العامة، وبمقارنة المسلمين الأمريكيين بالمسلمين في أوروبا كشفَت الدراسة عن أن 47٪ منهم يعتبرون أنفسهم مسلمين أولًا ثم أمريكيِّين ثانيًا.

أما في بريطانيا تزيدُ هذه النسبة إلى 81٪، وفي ألمانيا إلى 69٪، وبالنسبة لمعدّلات الدخل ونسبة الفقر فوجدَت أن مسلمي أمريكا أفضل حالًا من مسلمي فرنسا وإسبانيا؛ فنسبة الفقر بين مسلمي فرنسا وصلَت إلى 18٪، أما في إسبانيا وصلَت إلى 29٪، أما في أمريكا لا تتعدى 2٪، وإن دلّ هذا على مدى نجاح مسلمي أمريكا وسعادتهم أكثر من مسلمي أوروبا.

وننتقل من المسلمين إلى الأمريكيين أنفسهم ومدى اعتقادهم في المسلمين؛ ففي دراسة أخرى أُجرِيَت عليهم من قبل معهد (بيو) وجدَت أن ستة أشخاص من بين عشرة يعتقدون أن المسلمين يتعرّضُون للتمييز، وهذه النسبة أعلى بكثير مما يتعرَّض له اليهود والملحدون والمورمون، على الرغم من أن المسلمين لا يشكّلون أكثر من 2٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك نجد أن أكثر حالات التمييز الديني التي رصدَتْها لجنة تكافؤ فرص العمل معظمها مسلمون، ولكن هذا لم يمنع الإشادة بنجاح المسلمين داخل

المجتمع الأمريكي، وبالأخص مسلمي دول جنوب آسيا من الهنود والباكستانيين والعرب؛ ففيهم العلماء والأطباء والمحللون الماليون ورجال أعمال، حيث وصل عدد الأطباء الممارسين للمهنة إلى أكثر من خمسة عشر ألفَ طبيبٍ والآلاف من المليونيرات من أصل باكستاني.

مع بداية 2005 وصل عدد القادمين إلى الولايات المتحدة من الدول الإسلامية ويقيمون بشكل قانوني إلى 96.000 مقارنة بـ العقدَيْن السابقين، وتدل هذه الإحصائية الاستقصائية على مدى تنامِي ديموغرافي لمسلمي الولايات المتحدة، هذا بجانب وجود عددٍ كبير من الأمريكيين تصل نسبتهم إلى 45٪، قالوا أنهم يعرفون شخصًا مسلمًا على الأقل، وعلى الجانب السياسي 71٪ من المسلمين الأمريكيين يفضّلُون الحزب الديمقراطي، رغم أنهم تاريخيًا يميلون إلى الحزب الجمهوري بتقاليده وعاداته المحافظة القريبة من العادات والتقاليد الشرقية، ولكن بعد غزوِ العراق وأفغانستان انخفضَت نسبة تأيِيدِهم للجمهوريين.

أنا والإخوان المسلمين

في شبابِي كنتُ شابًا مسلمًا كأيّ مسلم أصوم رمضان وأصلِّي الجمعة وأقيم فرائض الصلاة تارة منتظمة وتارة أخرى متقطعة، وفي الحقيقة أخذَتْني مشاغل الحياة كثيرًا ولم أجد الوقت الكافي حتى لأولادي، ولكن

كنتُ أخشى الله في كل خطوة أخطوها في حياتي، ولم أرتكب معصية تغضبُه أبدًا، ربما أكون قد ارتكبتُ أخطاءً كثيرة في حق الآخرين وفي حق نفسي، ولكني لم أرتكبْ خطايا، وأُرجِع هذا إلي كوني ابن فلاحة مصرية تحمل كل معاني الوفاء والإخلاص والأصالة، وأبٍ كان يتّقِي الله في كل خطوة يخطوها، والشيء الأهم هو أني مصريّ ورثتُ الكبرياء عن الفراعنة وعزة النفس عن عبد الناصر، وفي رأيي "من ليس له قدوة يقتدِي بها ليس عنده كرامة للحفاظ عليها".

عندما جئتُ إلى هذه البلاد في نهاية الستينيات مع طلائع الهجرة المصرية الأولى لم نجد مسجدًا نصلي فيه، وكنا نصلّي الجمعة في أحد بيوت الأصدقاء، وتم بناء أول مسجد للمسلمين في ولاية (نيو جيرسي) على يد الأتراك، وكنا نسميه جامع الأتراك، وبطبيعة الحال كل شيء يبدأ صغيرًا ثم يكبر، وتوالَت دور العبادة والمساجد الصغيرة هنا وهناك، وساهمتُ بالكثير من المال لبناء مساجد في الأحياء التي يسكنها المسلمون والأحياء المجاورة، وكان هذا قبل تأسيس الاتحاد الإسلامي بسنوات، ولكن عندما أسّستُه وبدأتُ أتردّد على المراكز الدينية والمساجد وأماكن تجمع المسلمين بحكم الهدف الذي أُنشئَ من أجله؛ وهو صناعة لُوبي إسلامي له قوة التأثير على صناع القرار السياسي، جاءت من هنا علاقَتِي بالإخوان المسلمين.

عندما كنتُ في مصر سمعتُ عن الإخوان ومحاولتهم الفاشلة لقتل عبد الناصر في حادثة المنشية الشهيرة، وسمعتُ أيضًا عن الذي فعله معهم، وكيف زجَّ بهم في السجون والمعتقلات وأعدَمَ الكثيرَ منهم، لكن في أمريكا عرفتُهم عن قرب، وأقنعوني أنهم دعاة وليسوا قضاة، وصدّقتُهم وتعاملتُ معهم بحكم رئاستي للاتحاد، ولكني رفضتُ الانضمام إلى تنظيمهم، بعد عامَين من العمل الاجتماعي معهم أتى لي كبيرهم وقال لي احلِف على السمع والطاعة والولاء المطلق لنا حتى تكون أحد أقطاب الجماعة، رفضتُ بالطبع؛ لأني رجلٌ حر، ولا أسمح لأحد أن يسوقني تحت أي مسمى أو أعمل تحت أي ضغط، وانتمائي لوطني وعروبتي أقوى بكثير من انتمائي لجماعة يقودُها أمير.

ولا أنكر أن لهم فضلًا كبيرًا في تأسيس الاتحاد في بداياته، وفي الحقيقة لم أرَ منهم في بادئ الأمر غير كل خير، ولهم أيادي بيضاء على المهاجرين العرب؛ فقد آثَرُوا الحياة الدينية للمسلمين وصنعوا جيلًا من الشباب المتدين، وأنقذوا الكثير منهم من افتراس العادات والتقاليد الأمريكية البعيدة كل البعد عن قيمنا الدينية والأخلاقية، وأسّسوا بما يسمى (الويكيند سكول) ومدارس الأحد التي تعلّم اللغة العربية والدين، حفاظًا على الهوية.

حفلات إفطار الاتحاد الإسلامي الأمريكي في أكبر مساجد الولاية

لكن ما يعيب مدارس نهاية الأسبوع أنها بمصاريف، وللأسف ليست رمزية؛ فكيف لأبٍ عنده خمسة من الأولاد وأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة أن يدفع مبلغًا شهريًّا عن كل طفل من أطفاله؟! على عكس الكنائس العربية وخاصة المصرية؛ فهم يعلّمون أبناءَهُم اللغة العربية والدين مجانًا من دون مقابل، وهذه خدمة تُقدّمها الكنيسة للأسر المسيحية للحفاظ على اللغة والهوية والدين، وتقدَّم هذه الخدمة من التبرعات التي توجّه للكنائس من المتردّدين عليها.

أما الإخوان والسلفيون المسيطرون على المراكز والمساجد الدينية أراهم مخطئين في هذه الناحية، بل ومقصِّرين أيضًا؛ لأن زكاة أموال المسلمين ليسَت

بقليلة، خصوصًا بعد أن كثر عددهم إلى ثلاثة اضعاف عما كانوا عليه في الستينيات؛ فقد أصبحوا بالآلاف في كل ولاية وانتشروا، ومراكزهم الوظيفية والعلمية والتجارية مرموقة، ونمو نموًّا ديموغرافيًا وسكانيًّا وكبروا في المجتمع الأمريكي، وأصبحوا كيانات كبيرة على المستوى السياسي والاجتماعي وقوةً لا يستهان بها.

وعودةً إلى الإخوان -أقوى تيار سياسي منظم وسط هذه الكيانات الإسلامية- أنشأوا مدارس إسلامية تعلّم الدين الإسلامي بجانب المواد الدراسية الأمريكية، وخرّجَت هذه المدارس أجيالًا متفوّقة علميًا وملتزمة دينيًّا وأخلاقيًا، ولكن هذه المدارس أيضًا يدخلها أولاد الصفوة من أغنياء المسلمين، ومن المنتمِين إلى الجماعة وليس فقراءهم؛ لأنها بمصروفات عالية جدًا مقارنة بالطبقة الوسطى من المسلمين.

والعوام يُدخِلُون أبناءَهم المدارس الحكومية الأمريكية، فأنا علّمتُ بناتي في المدارس الأمريكية الحكومية؛ لأنها ليسَت سيئة وعليها رقابة حكومية مشدّدة، ولكنها تختلفُ من حيٍّ إلى آخر حسب مقدرة دافعِي الضرائب في كل مدينة من مدن الولاية.

بعد أن توطّدَت علاقتي بـالكيانات الإسلامية المختلفة تم اختياري رئيسًا للبورد التعليمي الإسلامي لولاية (نيوجيرسي) لمدة سنتين، ولكني تركتُهم عندما اكتشفتُ أنني واجهة اجتماعية لهم ليس أكثر بما أنني رجلُ

أعمال ناجح وله علاقات مع الساسة والمسؤولين؛ فقرروا استثمار هذا لصالحهم، اكتشفتُ تأخّرَهم في دفع الضرائب التي يجِب دفعها للحكومة الأمريكية، بما يعني أن هناك فسادًا ماليًا وإداريًا لم أقوَ على تصحيحه، وأيضًا التلاعب بنتائج الامتحانات، وخشِيتُ من تحمّل المسؤولية؛ فقدّمتُ استقالتي.

خلال رحلتي في العمل الأهليّ والاجتماعي الذي بدأ مع تأسيس الاتحاد الإسلامي، لم أشاهد من أتباع الإسلام السياسي غير القليل السيئ، والكثير الذي أعتبره مقبولًا، وتعاملتُ معهم على أنهم دعاةٌ وليسوا قضاةً كما قالوا لي من قبل، ومن خلال تجارب السنين عرفتُ أيضًا أنهم ليسوا ملائكة، وفي النهاية نحن بشر نُصيب أحيانًا ونخطئ أحيانًا أخرى.

لكن عندما تخطئ وأنت تعلم الصح وتصيب وأنت تهدف إلى مصلحة؛ فهذا لا يعتبر لوجه الله، بل لوجه مصلحتك ومصلحة جماعتك، وليس من أخلاقيات ديننا الحنيف أن ننظر إلى مصلحة أنفسنا قبل النظر إلى مصلحة عموم المسلمين البسطاء.

أول درس تعلّمتُه من الإخوان مبدأ (حرِّص ولا تخوِّن)، على سبيل المثال؛ عندما انتشر اسم الاتحاد الإسلامي الأمريكي وذاع صيته لم يضيِّعوا الفرصة واستغلوها أحسن استغلال؛ فهدفهم في الانتشار والتوسع هو القفز أولًا على الجمعيات الأهلية الناجحة، وذلك عن طريق تقديم الخدمات

وعرض المساعدات والتبرع بالوقت والجهد والمال سعيًا للوصول إلى مجلس الإدارة بأغلبية، ومن هنا يبدؤون في اتخاذ القرارات المصيرية والهامة التي تخصّ الأموال وصناعة القرار، ومن ثمّ خدمة الجماعة وأهدافها، ثم يأتي في المرحلة الأخيرة خدمة المجتمع الذي من أجله أُنشِئَت تلك الجمعية أو ذاك الاتحاد؛ فهم يعرِفُون بالضبط ماذا يريدون، وأحمد الله على أنّني شخصٌ حريص بالفطرة، وزاد حرصِي عندما تعاملتُ معهم، ولم أدَعُ لهم فرصة السيطرة على الاتحاد أو الهيمنة عليه.

ظهر لي هذا جليًّا عندما انتُخِبَتْ على أحد مجالس الإدارة لأحد أكبر المراكز الإسلامية في ولاية (نيوجيرسي)؛ فرأيتهم يحرصون على أنفسهم وأتباعهم ومصلحتهم قبل الحرص على عموم مصالح المسلمين، فمثلًا إذا تقدَّم أحدٌ بطلب عملٍ أو مساعدة مادية أو مشكلة اجتماعية يسارعون على الفور لتقديم المساعدة لمن هو منهم أولًا، أو ما يعرف عنه بالتديّن والتردّد على المسجد، وليس كل من هبَّ ودبَّ يدقّ باب المسجد يحصل على مساعدة، مع أن الذي أعرفُه عن ديني كمسلم قارئ في تعاليم الإسلام السّمِحَة هو تقديم المساعدة لكل الناس على اختلاف ألوانهم وميولهم وأهوائهم ونيّاتهم، والأعمال بالنيات كمبدأ إسلامي، ولكن عندهم الأمر مختلف وليس مُعلنًا، ويُفْهَم من بين السطور، ومن وجهة نظري هذا ليس عدلًا؛ لأن الله وحده يعلم ما في النيات والنفوس؛ حيث يقول في كتابه العزيز "ولا تزِرُ وازرةٌ وزرَ

أخرى"، وأكد عليها وذكرها في أكثر من سورة في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانَت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه".

الربيع العربي وتأثيره على الجالية العربية

عندما قامَت ثورات الربيع العربي لم أكن مستبشرًا خيرًا، وأبحرتُ بتخوّف إلى أبعد مدى، وخصوصًا مع بداية ثورة 25 يناير في مصر؛ لأني أعلم أن دولةً بحجم مصر لو قامَت فيها ثورة سوف تكون العواقب وخيمة؛ لأنها دولة مستقرة نسبيًا مقارنة بدول المنطقة، وعدد سكانها الكبير يبعثُ القلقَ في حالة الثورات وتغيير الأنظمة واهتزاز الحكم، ولكن الحمد لله ضربَ المصريون أعظمَ مثالٍ في التحضر وقدّمُوا للعالم أجمل صورة عن أحفاد الفراعنة في القرن 21.

و ستظلّ مصر بلد الأمن والأمان وشعبها شعبًا أصيلًا يظهر معدنه وقت المِحَن والشدائد، وترقّبتُ الموقف عن بعد، ولكن لم أُخْفِ قلقي عن من حولي على مصر وتغيّر النظام السياسي بها، ومطالب الثورة عادلة.. عيش حرية عدالة اجتماعية، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا ببناء نظام ديمقراطيّ قويّ، وعن طريق التعلم والممارسة الذي يبدأ بالأطفال في المدارس أولًا؛ حيث

يتعلموا الديمقراطية في الكتب الدراسية، ثم يمارسونها كما الحال في أمريكا أقوى الديمقراطيات في العالم؛ فالديمقراطية هنا جاءَت بالتعلم والممارسة، ولم تكن وليدة اللحظة، ولكنها وليدة دستور عظيم عمره أكثر من مائتي عام وضعه الآباء المؤسسون لصنع حياة اجتماعية وسياسية سليمة تتوارثها الأجيال.

بعد سقوط مبارك وتقديمه للمحاكمة هو وابنيه وأَذْرُعَة حكمه ووقوف الجيش المصري في صف الشعب بدأَت هواجسي ومخاوفي تهدَأ رويدًا، لكن سرعان ما بدأَت تعود هذه المخاوف عندما رأيتُ ظهورَ التيارات الإسلامية على الساحة الثورية، وهم من كانوا بالأمس القريب أصلَ الصفقات مع النظام القديم على حساب هذا الشعب الذين يتكلمون باسمه على منصات الثورة، وأهم هذه التيارات تيار الإخوان المسلمين.. التيار المتربص دائمًا والخاطف للفرص في أية لحظة، وأعتقد أن ثورة يناير كانت فرصتَهم الكبرى للانقضاض على الحكم واستغلال الشباب الثائر الحالم بحياة أفضل للوصول إلى أهدافهم، ومن هنا بدأتُ أحذّر منهم ومن صعودهم المخيف نظرًا لتجاربي السابقة معهم، وأيضًا لخوفي على مصر التي تركتُها في السابق أعقاب هزيمتها في 1967، وتولّدَ داخلي شعور بالحنين الدفين لهذا الوطن، وأنه جاء دورِي لردّ الجميل لهذا الوطن العظيم، وأن السكوت أو الهروب مجددًا خيانة، ولن أسامح نفسي هذه المرة، وبدأَت الحروب الخفية تبدأُ بيني وبين الإخوان في المجالس والاجتماعات، وبدأتُ أُظهِر للجميع تخوّفاتي من صعودهم إلى كرسي الحكم في مصر، وعلى الناحية الأخرى بدأوا هم بشَحْن الجالية كل أسبوع من المساجد في حافلات كبيرة إلى الميادين العامة في (نيويورك)، ومحادثة وسائل الإعلام للضّغط على المجلس العسكري وتهيئة الرأي العام الأمريكي لصعودهم لحكم مصر، وعندما قامَت الانتخابات الرئاسية وسُمح

للمصريين بالخارج بالإدلاء بأصواتهم في السفارات والقنصليات التابعة لها وحُجِم الصراع الانتخابي وانتهى بين مرسي والفريق أحمد شفيق دعوتُ أبناء الجالية إلى انتخاب شفيق، وهذا ما أدخلني في جدالٍ أشعلوه مع تيار شباب الثورة في (نيويورك)، واعتبروني من الفلول، وحذّرُوا من أن يستمع لي أحدٌ، وقادوا حربًا معلنة ضدي، ولكن لم أهتم لكلامهم؛ فأنا لستُ من الفلول ولم تكن لي أية تجارة أو مصالح شخصية مع نظام مبارك أو أي نظام يصعد للحكم، وجُل همّي مصر ومصلحة مصر، وإنقاذها من بين مطرقة الإسلاميين وسندان المجهول.

لكن تأتي الرياح دائمًا بما لا تشتهي السفن، وفاز الإخوان في انتخابات رئاسية شرسة قادوها ضد الشعب المصري البسيط، تارةً بالترغيب وتارة أخرى بالتهديد والوعيد وتخويف الشعب بأنه على شفا حرب أهلية في حالة خسارتهم للانتخابات، وترغيبهم لشباب الثورة بمستقبل واعد لأحلامهم الكبيرة وتم اجتذابه لصفوفهم، وأعتقد أنهم سببٌ كبير في فوز الإخوان؛ فلولا تخويف الناس والشباب الثائر من عودة نظام مبارك في شكل الفريق شفيق ما نجحوا أبدًا، فعلى ما أتذكر في الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية لعام 2012 دخل الإخوان بقوة خمسة مليون صوت، وهذا هو عددهم الحقيقي في مصر، ومع الشحن الإعلامي وشراء أصوات البسطاء وخداع شباب الثورة وصل الصوت الانتخابي إلى 13 مليون صوت في الجولة الثانية،

وفازوا بحكم مصر بفرق مليون صوت أو أكثر لصالح مرسي ضد الفريق شفيق، ويقال أن هناك تزويرًا وتلاعبًا في نتيجة الانتخابات، وفي الحقيقة لستُ مستبعدًا هذا؛ فعند أصحاب المصالح الغايةُ تبرّر الوسيلة.

وللأسف حزنتُ حزنًا شديدًا جدًا وشعرتُ بخيبة أمل وخوف على مستقبل مصر تلك المضغة الحية في قلبي، وكعادتي أقول الحق ولا أخاف لومة لائم، وقلتُ لكل أصدقائي من الساسة والمسؤولين الأمريكيين الذين أعرفهم إن الإخوان خطرٌ على مصر وعلى المنطقة بأكملها، حتى الإخوان أنفسهم قلتُ لهم ذلك! ولكن في هذا الوقت لم يُعَر لكلامي أي اهتمام، بل ذهبوا بانتصارهم إلى عنان السماء وكأنهم مسكُوا النجوم بأيديهم، ومن شدة سعادتهم أصبح كل واحد منهم يكشفُ عن انتمائه للإخوان بكل فخر بعدما كان ينكر أكثرهم أنه من الإخوان، وبدأوا التقرّب إلى الساسة والمسؤولين بشكل هيستيري في كل مناسبة، ويقدمون أنفسَهم على أنهم من أتباع الرئيس مرسي ويشرحون لهم كيف هو قائد عظيم وحاكم عادل، وأنهم حلفاء استراتيجيّون لأمريكا، وكنتُ أعلّق على كلامهم أمام السياسيين، ومنهم صديقي المقرب عضو مجلس الشيوخ السيناتور (بيل باسكريل)، وأقول لهم لا تصدقوهم فهم كاذبون؛ فيضحكون ويضحك هو معلّقًا: "يا عزيزي كلنا كاذبون"، في إشارة منه إلى سياسة المصالح التي تتّبِعُها أمريكا تجاه العالم الخارجي، وبالأخص منطقة الشرق الأوسط.

بدأت نشوة النصر تتصاعد أحدّتها حتى وصلَت إلى المنبر وخطبة الجمعة، وأصبح الحديث عن عظمة الإخوان وسجِلّ تضحياتهم من أجل الإسلام والمسلمين شُغلَهم الشاغل، واعتلَت قيادات إخوانية منابر المساجد، وتم الكشف عن أنفسهم، وبدأوا يشحنون الناس ويقلّبون أبناء الجالية العربية بعضهم على بعض، وبالأخص من ينتمون إلى دول الربيع العربي مثل مصر وتونس وسوريا وليبيا واليمن، شُحِنوا ضد النظام في سوريا وزادوا من هوّةِ الخلاف بين الشباب الثائر والحكومة الشرعية، وأتذكّر كيف زاد الشحن الهيستيري عندما أعلن الرئيس بشّارُ أنه سوف يقيم انتخابات رئاسية في 2014 في موعدها كما حدّد الدستور وأنه سوف يرحل بعد ذلك، ويبدو أن هذا الكلامَ لم يأتِ على هواهم أو مع مخططهم، وتم تحويل ثورة الدفوف في أزقة وحواري سوريا إلى ثورة مسلحة وحرب أهليّة قُتِل فيها الآلاف وشُرّدَت الملايين على يد النظام السوري الغاشم والتيارات المتصارعة ما بين الحكم والتقسيم، ومن وجهة نظري أيديهم جميعًا ملوّثة بدماء الشعب السوري، وتحوّلَت هذه القطعة الجميلة من أرض الشام إلى نار موقدة يغطّيها رمادُ مستقبلٍ مجهول.

وكما الحال في سوريا كان الحال مع ليبيا وتونس واليمن، وأيضًا مع حماساوية غزة، وحتى أكون منصفًا ليس هم فقط من أحمَلَهم خريفُ الربيع العربي وتساقط أوراقه؛ فلا أستبعد إسرائيل وإيران وبعض دول الخليج،

وعلى رأسهم قطر، وأيضًا إدارة الرئيس أوباما وسياسته الفاشلة في الشرق الأوسط التي تتحمّل الجزء الأكبر والمسؤولية تجاه ما حدثَ في سوريا بالذات.

مشاركتي في إحدى مظاهرات نيويورك لفك الحصار عن قطاع غزة ٢٠٠٨ مع القيادي الفلسطيني ماهر عبدالقادر

وأتذكر أنني كنتُ في أحد المجالس التي جمعَتْني بعددٍ من المسؤولين الأمنيين في ولاية (نيوجيرسي) وسألوني عن رأيي في تنظيم داعش ومَن صنعهم ومَن يموّله؟

لم أتردّد لحظة في الرد، وقلت لهم: "أمريكا بالطبع هي من صنعَت الإرهاب في المنطقة منذ غزو العراق وإسقاطها لنظام صدام حسين؛ ذلك الرجل القوي الذي كان واقفًا بالمرصاد للتيارات الإسلامية المتشددة ولكل من تسوّل له نفسه بمجرد التفكير في التقرب من منطقة الهلال الخصيب، وإن كنتم أسقطتُم صدامَ لأنه ديكتاتور؛ فها هو قد رحل وقُتِل على أيديكم، وجاء مكانه برابرة ونازيون لا يعرفون غير لغة القتل والدمار".

سقوط الإخوان في 30 يونيو بمصر وصعودهم بأمريكا

عندما سقط حكم الإخوان في 30 يونيو 2013 بثورة شعبية -كما يسمّيها الشعب المصري- أو بانقلاب عسكري في 3 يوليو كما يسميه الإخوان، سعدتُ سعادة غامرة واستبشرتُ خيرًا وتنفّستُ الصعداء، خصوصًا عند ظهور الجيش مجددًا في الصورة لحماية مصر من الانهيار والسقوط في مستنقع الحرب الأهلية التي هدّدَ بها الإخوان، ومهّدوا لوقوعها منذ الانتخابات الرئاسية في 2012، واستمرَّت طول فترة حكمهم القصيرة التي حاولوا فيها أخوَنَة الدولة والسيطرة على المواقع السيادية لصالح جماعتهم.

وبحكمة الشعب المصري المعتادة ووقوفه مع جيشه واقتناعه الكامل بأن الإخوان خطر على مصر نجح عبد الفتاح السيسي في إنقاذ مصر وحفظ الأمن وعودة الأمان لها.

نجح الانقلاب -كما يسمونه هم-، أو الثورة -كما يسميها جموع الشعب المصري-، وما بين المسميات عادت لمصر شمسها الذهبي، وخرّت بسلام من بين سندان المخطط الصهيوأمريكي ومطرقة الإسلاميين؛ الأداة المنفذة لأجندة المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، ولكن الإخوان في أمريكا أربكُوا المشهد المصري وشوّهُوا صورته في الخارج بمساعدة قناة الجزيرة القطَرِيّة ودعمهم إعلاميًا وماديًا لهم، مع التدخل الفجّ للنظام التركي في الشأن المصري، كنت أحترقُ في اليوم ألفَ مرة عندما أراهم كلهم متكالبِين على مصر.

ما زلتُ أبكي دمًا على شباب الجيش المصري الذين يَلقَون حتفهم كل يوم على يدِ الغدر والإرهاب في سيناء، والهجمات الدامية المتكرّرة على الكنائس ودور العبادة للأخوة المسيحيين، والمتهم الأول والوحيد فيها هو تيار الإسلام السياسي بكل طوائفه وفروعه.

ومن وجهة نظري الشخصية أعتبرُ إخوانَ أمريكا أقوى جماعة إخوانية في العالم لها صوت مسموع لعدة أسباب؛ أهمها:

1. تمتُّع مواطني الولايات المتحدة الأمريكية بحرية الرأي والتعبير بناءً على ما ينص عليه الدستور والقانون ويكفُلُه للشعب الأمريكي، والإخوان جزءٌ من هذا الشعب ومواطنون أمريكيّون؛ مما أعطى لهم الحق في إبداء رأيهم والتعبير عن أنفسهم، والتحدث عن قضاياهم والتركيز على أن ما حدث في مصر انقلابٌ عسكري وليست ثورة شعبية، وشاع هذا في كل مكان؛ سواء بالخروج في مظاهرات حاشدة أو عقد مؤتمرات يُدعَى إليها مراكز بحثية مهمة مركزها العاصمة واشنطن واقعة تحت دائرة الضوء والإعلام.

2. الثنائي الفاشل المتمثل في الرئيس أوباما ووزيرة خارجيته (هيلاري كلينتون)، وتلك الإدارة السيئة التي تسبّبَت في انهيار دول كثيرة في الشرق الأوسط واستغلّت الربيعَ العربي لتصعيد تيار إسلامي مستأنَث لهم يعترف بدولة إسرائيل ويعادي إيران، ويكون على مسافة قريبة للتنظيمات الإرهابية، ويلعب دورَ الوسيط وهم لم يجدوا أفضلَ ولا أحسنَ من الإخوان المسلمين في تنفيذ ذلك المخطط القذر، بما يفسّر لنا تهديد إدارة أوباما بقطعِ المعونات العسكرية عن مصر وشحن الكونجرس الأمريكي لاتخاذ هذا القرار، وتشجيع الإخوان في كل مكان ودعمهم إعلاميًّا ومعنويًّا، وربما ماديًّا.

3. حجرُ الأساس الذي وضعه الإخوان منذ عشرات السنين بسيطرتهم على المساجد والجمعيات الأهلية وأماكن تجمع المسلمين أعطى لهم القوة في السيطرة على الناس؛ مما جعلهم يثقون فيهم ثقة عمياء، ويخرجون معهم في

مظاهرات حاشدة ضد مصر في أكبر ميادين الولايات الكبرى (نيويورك، وشيكاغو، وأمام البيت الأبيض في واشنطن)، وشحنِهِم مجددًا في حافلات كبيرة من أمام أبواب المراكز الدينية، واستبدلوا أعلام مصر بإعلام رابعة وصور المعزول مرسي وعلَم الإخوان المسلمين، ولا ينكر أحدٌ تأثيرَهم على الإعلام الأمريكي والشارع الأمريكي في بادئ الأمر، ولكن تدريجيًا بدأت الأمور تتكشَّف وتظهر الحقائق، خصوصًا بعد رحيل (كلينتون) وزوال إدارة أوباما وصعود (دونالد ترامب) للحكم.

أنا ودونالد ترامب

مع بداية الحملة الانتخابية الرئاسية الأمريكية وعودة (هيلاري كلينتون) مجددًا وبقوة إلى حلبة الصراع السياسي على المكتب البيضاوي في البيت الأبيض، انزعجتُ جدًا وتجدّدَت مخاوفي من كونها مرشحة عن حزب كبير كالحزب الديمقراطي الذي له باعٌ سياسي وقبولٌ اجتماعيّ بين أوساط الأسر الأمريكية بجميع طبقاتها، وأيضًا التسريبات الصحفية عن دعم مجموعة (وول ستريت) وتمويلها لحملتها الانتخابية، ووضع ملايين الدولارات تحت تصرفها، وبحكم خبرتي وعيشَتِي في هذه البلاد ومعاشرتي للسياسيين أعلم جيدًا قوة المال وتأثيره في نجاح أي سياسي ذكي يعرف جيدًا توظيفه لصالحه وقت اللزوم، و(هيلاري) داهية كبيرة ولها خبرة تمتد لأكثر

من أربعةِ عقود في السياسية وخدمة المجتمع المدني، وجلسَت في البيت الأبيض ثماني سنوات كسيّدة أُولَى أبلَت بلاءً حسنًا ووقفَت ضد الشعب الأمريكي والإعلام وكل من هاجم زوجها لنصرته بعد فضيحته مع متدربة البيت الأبيض السابقة (مونيكا لونيسكي)؛ فهي من وجهة نظري امرأة قوية وتعلم من أين تؤكل الكتف، ولكن موقفها من مصر وسياستها الفاشلة في الشرق الأوسط، وقراءتها الخاطئة للمشهد السوري وتسليح وتدريب إرهابيين لا يعلم عنهم أحد وموقفها المخزي في ليبيا، ودعمها للإخوان المسلمين في مصر، ومن قبلهم دعمها للرئيس المخلوع حسني مبارك أثناء ثورة يناير، كل هذا جعل رصيدها عندي صفرًا، وتمنيتُ من كل قلبي ألّا تعود للساحة السياسية وألا تفوزَ بالانتخابات الرئاسية.

وفي البديل المقابل كان هناك (دونالد ترامب) رجلَ الأعمال الناجح الذي يمسك التراب بيده فيحوله إلى ذهب، وفي الحقيقة لم أنفِ إعجابي به في بادئ الأمر وبذكائه المطلق، واستمعتُ إلى رؤيته السياسية تجاه كل المواضيع داخليًا وخارجيًا، وزاد إعجابي به عندما أعلن تأييده لسياسات الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، وكيف وقف وحده كالأسد في وجهة التطرف من أجل حماية مصر والحفاظ على أمنها، وسرعان ما تبدّل إعجابي به ونظرتي إليه تغيّرَت بعد تصريحاته العنصرية تجاه المسلمين، وخلطه الشائن والجاهل بين الإسلام والتطرف، وبما أنني مسؤول عن منظمة تهتمّ بشؤون المسلمين في أمريكا بدأنا نُصدِر بيانات إدانة باسم الاتحاد الإسلامي الأمريكي لكل تصريحاته العنصرية ضدنا، وأكّدنا مرارًا وتكرارًا على أهمية النسيج الأمريكي الذي يتكوّن من المسلمين وغير المسلمين، وحذّرْنا من أن تصريحاته هذه سوف تهدّد السلام الاجتماعي للشعب الأمريكي المسالم بطبعه والمتميز باختلاف الأديان والثقافات والعادات والتقاليد التي تعتبر كالبنيان المرصوص جعلَت منها بلدًا قوية تقود العالم.

دخلتُ في حرب تصريحات بيني وبين حاكم الولاية التي أعيش فيها نظرًا لتأييده ودعمه الكامل لـ(دونالد ترامب)، ونحن المسلمين منتشرون بالآلاف في كل أنحاء الولاية، ولنا قوة تأثيرية على الانتخابات المحلية؛ فتوعدتُه بأننا سوف نتحداه ولن أنتخبه كحاكم للولاية مرة أخرى، وذكّرتُه

بأنه عندما صعد لحكم الولاية من عدة سنوات كان يتقرّب لنا ومن الاتحاد الإسلامي، وصعدَ الخلاف بيني وبينه على صفحات جريدة (نيويورك تايمز)، ومعي مجموعة من الناشطين في المراكز الدينية والمنظمات الأهلية التابعة للمسلمين، وهذا رابط الجريدة:

https://nyti.ms/2sZGBW1

مع حاكم ولاية نيوجيرسي (كريس كريستي)

قبل أن ينحاز لدونالد ترامب

وبعد أن استغنى (ترامب)، ذلك الرجل الذكي الذي يفهم جيدًا في لغة المصالح لكل من حوله؛ لأنه رجل أعمال بفطرته وليس سياسيًّا محنكًا يلعبُ على جميع الحبال، عن أشدِّ مناصريه بعد أن فاز بالمكتب البيضاوي؛ وهو حاكم نيوجيرسي (كريس كريستي)، الذي باعَنَا من أجل منصبٍ في التشكيل الرئاسي الجديد ولم ينَلْهُ، أدركتُ لحظتها دهاءَ وخطورة (ترامب)، وأن تصريحاته العنصرية ضد المسلمين والأقليات عمومًا ما هي إلا دعاية انتخابية لجذب أكبر عدد من الأصوات، ولدغدغة مشاعر الأمريكيين الذين عانوا من الإرهاب والإرهابيين، ولكي يكون مميزًا فكان عليه الخروج عن المألوف ويغرّد خارج السرب؛ لجذب النظر والانتباه، وبالفعل نجح بجدارة في الحصول على رئاسة أقوى دولة في العالم، لكننا له بالمرصاد لو حاول مجددًا الاقتراب من الإسلام والمسلمين.

أفراد أسرتي وقصص نجاحاتهم

يقولون "وراء كل عظيم امرأة" وقفَت بجانبه وشدَّت من أزره، ووفّرَت له حياة هادئة بدون مشاكل، استطاع أن يستثمر هذا في صناعة النجاح والوصول إلى الغاية التي يتمناها؛ لأن المرأة في حياة الرجل مثل الجسر يربط بين ضفتَي بحرٍ كبير وعميق يعبر مِن عليه الرجل حتى يصل إلى بر الأمان، وكما يقولون في الفلاحين: "الراجل بحر والسّت جِسر يعدِّي

عليه"، وفي الحقيقة أعتبر نفسي محظوظًا بالنساء الذين ظهروا بحياتي؛ أولهم أمي رحمة الله عليها سيدة نساء الأرض في نظري، وكما تحدثت عنها سابقًا وعن حكمتها، وأن كل عائلتها كانوا يلجئون إليها لأخذ رأيها في مشاكلهم المهمة، وكيف ساعدَتْ والدي في حياته العملية وانتقلَت معه من كفر الشوربجي بالغربية إلى الإسكندرية تلك المدينة الكبيرة وساعدته على النجاح، وفضلَها الكبير وعظيم أثرها في هجرتي إلى أمريكا، وشجّعَتْني على الرغم من كوني ابنها الوحيد ومعارضة والدي لفكرة السفر، وببرَكَةِ دعواتها تخطّيتُ أصعب المواقف في حياتي، ولم أتخلَّ عنها أبدًا، وعند وفاة أبي رحمه الله انتقلَت إلى العيش معي في أمريكا لمدة ٢٨ عامًا معزّزة مكرمة كملكة متوّجة على عرش بيتي، ورحلَت عن عالمنا بعد صراع مع مرض السرطان ووِريت الثرى عام ٢٠٠٤ في مقابر المسلمين (نيوجيرسي)، وحزنتُ عليها حزنَ عمرِي، وحتى الآن أفتقدُها بشدة وأشتاق إليها، وصورتها لم تفارق خيالي يومًا واحدًا.

والدتي عليها رحمة الله

والمرأة الثانية التي أُدينُ لها بالفضل لكلّ ما وصلتُ إليه هي شريكة كفاحي على مدار نصف قرن الدكتورة (ميرفت)؛ تلك المرأة الرائعة الجميلة الرقيقة التي جذبَتْنِي من أول وهلة وقعَت عيني عليها منذ أن كانت طالبة في السنة الأولى لكلية الطب جامعة الإسكندرية، تمنّيتُ الارتباط بها والزواج منها قبل سفري، وبالفعل عقدتُ قراني عليها؛ لأني خشيتُ أن أفقدَها بهجرتي، وأيضًا خشيتُ من أن يفوز بها رجلٌ آخر نظرًا لأخلاقها العالية وجمالها وبراءة وجهها الذي يشبه وجهَ الملائكة عندما يهبطون على الأرض في ليلة قمرية؛ فهي امرأة متميزة ومتفردة في كل شيء، وتختلف عن مثيلاتها وتقدّر جيدًا قيمة الأسرة ودور الزوج في قيادة سفينة الحياة، فكنتُ الربان

وكانت هي البوصلة التي أخذَتْنِي يمينًا وشمالًا بعيدًا عن تقلبات الرياح وغدر الأمواج، وأوصلَتْنِي لشط الأمان؛ فلم تستكمل حلمها في أن تكون طبيبة ممارسة للعمل على الرغم من تخرّجِها بتفوّق من كلية الطب، وعلى الرغم من وجودها في أمريكا مهدِ العلم والعلماء وإتاحة الفرص الذهبية لأصحاب العقول العلمية، لم تستغل هذا لصالحها، فضّلَت أن تبقى بجانب أسرتها وبناتها وبجواري، وعملَت معي منذ البداية وشجّعَتْني في كل خطوة خطوتُها في حياتي، وخدمَت أمي في مرضها سنوات طويلة بجانب أعبائها الكبيرة ومسؤولية البيت والأولاد والمصنع

زوجتي العزيزة د/ ميرفت يونس

الزوجة الصالحة رزق وكنز لا يُقدّر بثمن

رحلَت أمي وهي راضيةٌ عليها وداعيةٌ لها عند رب العالمين، هذا بالإضافة إلى والدها حماي العزيز الذي زوّجَني إياها ووثَق فيّ، والحمد لله كنتُ أهلًا لهذه الثقة، لهذا الرجل الفضل الكبير في حياتي واستقرارها؛ فلولاه ما كنتُ نجحتُ في حياتي؛ لأن الزوجةَ الصالحة رزقٌ مثل الصحة والمال ودعوة الأم، وبموافقته على زواجنا في ظروف صعبة وغير عادية، وربما أُرجِع هذا إلى كونه فنانًا تشكيليًّا مرهف الحس يشعر بالتفاصيل قبل رسمها؛ فهو شعرَ وحسَّ وآمنَ بحبي لابنته ووثقَ من أصلي الريفي النبيل؛ فزوّجَني إياها بلا تردد، ولقد حاولتُ أن أردّ له الجميل وأكون على العهد، فعندما سمعتُ

بأخبار مرضِه لم أتردّد لحظة في إحضاره إلى أمريكا والعيش معنا، وقد أبدع خلال إحدى عشرَ سنة عاشها معنا بأجمل اللوحات التي رسَمَها من وحي الطبيعة الخلابة التي تحيطُ قصرنا من كل جانب، وفي الحقيقة كنتُ أعتبره صديقًا مخلصًا أكثر من كونه والد زوجتي وفي مقام والدي، هذا بجانب ٥٠٠ لوحة رسمها في حياته، ومنها أشهر لوحاته المعروفة باسم (أمومة)، وهي معروضة حاليًا في معرض الفن الحديث تخليدًا لذكراه العطرة وريشته التي لا تقدَّر بثمن؛ فكان مبدعًا حقًا بالفطرة وبالإحساس.

حماي العزيز الفنان التشكيلي أحمد عبد الفتاح

في نهاية الرحلة معنا مرضَ بالمرض اللعين، وجلس في الغرفة المجاورة لغرفة أمي، وكانا الاثنان يئِنَّان من الألم ومصارعة المرض، وزوجتي المخلصة الأصيلة لم تأْنِ أو تكِلّ أو حتى تشتكي، وظلَّت صابرة على الابتلاء حتى آخر نفس في حياتهم، وفي الحقيقة شهادتي لها مجروحة؛ لأني زوجها، ولكن شهادة المجتمع الخيري الذي عملتُ فيه ومن أجله يشهد لها، ولن أتحدث عنها أكثر من ذلك حتى لا يضيع أجرها عند الله على كل ما تُقدّمه لخدمة الناس.

أنتقل من أمي وزوجتي إلى فلذات كبدي (مها ومُنَى) تلك الزهرتان اللتان تفتَّحا في ربيع عمري، ولم يرزقني الله بغيرهما؛ فأحسنَّا تربيتهما وراعَيْنا الله فيهما، ومن أجلهما تحمّلنا الصعاب وحفَرْنا في الصخر، وصنعنا المعجزات وواجهنا المستحيلات، كنتُ أعمل أكثر من ست عشرة ساعة في اليوم، وكانت تمر أيام دون أن أراهما، واعتمدتُ على زوجتي في تربيتهما، والحمد لله علمناهُما أفضل تعليم، ابنتي الكبيرة الدكتورة مها تحمل شهادة الدكتوراه في طب الأعصاب، وبالأخص عند المسنين، ومتزوجة من مهندس ولديها ولدان، والصغرى الدكتورة منى طبيبة بشرية، ومتزوجة من طبيب ولديها خمسة أطفال، ومتفرغة حاليًا لتربية أولادها.

أحفادي تتويجًا جميلًا لرحلة عمري مع رفيقة الدرب

نصيحتي لكل أبٍ أن يزوّج ابنته لمن يرضَى دينه وخلقه، ثم علمه، ثم ماله الذي يأتِي في المرحلة الأخيرة؛ لأن الأصلَ والخلق الحسن أفضل من الجاه والسلطان، وهذا ما يدفَعُني للحديث عن نسبة العنوسة المرتفعة بين بنات الجالية العربية، هذا بسبب تعنُّتِ الآباء وتزمُّتِهم، ووضع الشروط المجْحِفَة والعراقيل أمام الشباب العربي لراغبي الزواج من بناتٍ عربيّات، ويرجع هذا التعنُّت إلى طمَعِ الأهالي في الدخل الكبير الذي يجنِيه بناتهن من أشغالهن؛ لأن معظمهن متعلماتٌ تعليمًا عاليًا، ويعمَلْن في مراكز مرموقة.

الأب العربي يرغبُ بتزويج ابنته بمن يمتلك المال والمركز الوظيفي أو المادي، ويغفل شيئًا مهمًا؛ وهو سمو الأخلاق والأصل الطيب والالتزام الديني.

شهادات وآراء من داخل المجتمع الأمريكي

تميّزَ محمد يونس دون غيرِه ممن سبقوه في الهجرة إلى أرض الأحلام بأنه رجل سبق عصره، بل أثبَتَ بالتجربة أنه رجل لكل العصور، وذلك بتخطِّيه الصعوبات التي واجهته بفطرة إنسان قبل أن يكون رجلًا شرقيًا قادمًا من بلاد ما وراء المحيط، تعلّم من دينه أن لا مجال للحقد والكراهية في مجتمع منتج قائم على التنافس من أجل الأفضل والبقاء دائمًا للأتقى صاحب النوايا الحسنة والأهداف النبيلة؛ فكسبَ حبّ واحترام وتقدير كل من حوله، وتعامل معه وعرفَه عن قرب من عرب وأمريكان وفئة كبيرة من المهاجرين المسلمين وغيرهم، على اختلاف جنسياتهم وألوانهم وطوائفهم، وهذ بعضٌ من شهادات ممن عرفوا (يونس) عن قرب وتعاملوا معه من أجل مجتمع أفضل، ومنهم:

السيد / إد ديكسون

المدير السابق للأمن الداخلي بولاية نيوجيرسي

ED Dickson/ Formal Director of Homeland Security for the state of New Jersey

I met Mohamed following the September 11، 2001، attack at the World Trade Center in New York.

It was through the Federal Bureau of Investigation's Community Outreach initiative to the Muslim community that we first met and began working together. Mohamed was engaged through the American Muslim Union (AMU); and through his association with some of the local mosques in northern New Jersey. The FBI'S engagement was

initially led by and supported by several Senior Executives from the Newark Field Office. Many years later، while serving as Director of Homeland Security for the State of New Jersey، I reconnected with Mohamed through several community initiatives and working groups.

I found Mohamed to be very engaging، but also guarded and apprehensive during our initial interactions. He was also very thoughtful، reflective، and protective of his community. After several discussions، meetings، and meals، we both came to better understand each other's perspectives and the need for a relevant partnership، for the greater security and safety of all. Over the years I know Mohamed to be a trusted friend and advisor، who has a deep love for his family and much pride and love for his community. I also know Mohamed was/is well respected within the Muslim and law enforcement community in New Jersey.

I met and partnered with Mohamed during one of the greatest crisis in the history of the United States، and our collective engagement had an impact here in New Jersey – and I have no issues with him. Actually I met Muslim's before I met Mohamed but AMU provided an opportunity and venue to meet and

interact with Muslim's from across New Jersey and the region. AMU's platform provided for discussion and collaboration on a range of issues/topics that went beyond terrorism and anti-Muslim activity. The Muslim community has added value to the United States' culture and society. Muslims are citizens، teachers، business owners، attorneys، professional athletes، and politicians. Like others، Muslim's have both 'served and sacrificed' for this country.

التقيتُ بمحمد في أعقاب هجوم 11 سبتمبر/ أيلول 2001 على مركز التجارة العالمي في نيويورك، ومن خلال مبادرة التوعية المجتمعية التي اتّخذَها مكتب التحقيقات الفيدرالي (الاتحادي) للمجتمع الإسلامي، التقَيْنا لأول مرة وبدأنا العمل معًا، وكان محمد ممثّلًا عن المسلمين من خلال الاتحاد الإسلامي الأميركي، ومن خلال ارتباطه ببعض المساجد المحلية في شمال (نيو جيرسي)، وكان مكتب التحقيقات الاتحادي في البداية بقيادة ودعم العديد من كبار المسؤولين التنفيذيين من مكتب (نيويورك) العام، وبعد سنوات عديدة، عندما كنتُ مدير الأمن الداخلي في ولاية نيوجيرسي، أعدتُ التواصل مع محمد من خلال العديد من المبادرات المجتمعية.

لقد وجدتُ محمّدَ ذو شخصية جذّابة جدًا في تعاملاته، ولكنه حذِرٌ ومتخوّفٌ أيضًا خلال تفاعلاتنا الأولية، كما كان حريصًا جدًا وحاميًا لمجتمعه، وبعد العديد من المناقشات توصّلْنا إلى فهم أفضل لوجهات نظر بعضنا البعض والحاجة إلى شراكة ذات صلة، من أجل المزيد من الأمن والسلامة للجميع.

على مرّ السنين أعرفُ أن محمّدَ صديق موثوق به ومستشار جيد لديه حبٌّ عميق لعائلته والكثير من الفخر والحب لمجتمعه، أعرف أيضًا أن محمّدَ كان يحظَى باحترام كبير داخل مجتمع المسلمين وإنفاذ القانون في (نيوجيرسي).

تعاملتُ مع محمد واشتركتُ معه خلال واحدة من أكبر الأزمات في تاريخ الولايات المتحدة، وكان لانخراطنا الجماعي تأثيرٌ هامٌّ هنا في (نيوجيرسي) -وليس لدي أية مشاكل معه-، ومن خلال العمل معًا في الاتحاد الإسلامي الأمريكي وجدتُ مكانًا مناسبًا للالتقاء والتفاعل مع المسلمين من جميع أنحاء ولاية (نيوجيرسي) والمنطقة، وقد وفّر لي بيئةً خصبة للنقاش والتعاون بشأن مجموعة من القضايا والمواضيع التي تتجاوز الإرهاب والنشاط المعادي للمسلمين الذين أضافوا قيمة إلى ثقافة الولايات المتحدة ومجتمعها، المسلمون هم مواطنون؛ منهم معلمون، أصحاب الأعمال،

محامون، رياضيون محترفون، والسياسيون، مثلهم مثل الآخرين الذين خدّمُوا هذه البلاد وضَحُّوا من أجلها.

عضو الكونجرس الأمريكي بيل باسكريل

Rep. Bill Pascrell 9th District of New Jersey

Mohamed is great friend of 30 years; he has a beautiful family and is a credit to the entire Muslim population. He cares about others and always tries to be a productive role model. He concerns himself with his brothers and sisters and Muslims assimilating into our society but is just as vehement and upholding of the church and the traditions of his faith. He is a great American who upholds American values.

Mohammad helped me relate to the Muslim community by introducing me to the myriad of activities which reflect this vibrant part of the total community. I met so many people through Mohamed. He knew many people; I thought it was unbelievable how many people he introduced me to in that small time. I was known not only in my city but beyond its borders before I ever ran for public office.

I'm anxious to read this book and not only because obviously repeats the words of my friend، the words of a love of a friend but I want to read it because I know It will be fascinating about what his experiences have been. He is a well-traveled person، who cares about his community. He contributes to his community and many of them are part of the general population in his age group.

محمد صديقٌ لي منذ ثلاثين عامًا ولديه عائلة جميلة وهو ائتمان حقيقي للمسلمين بأكملهم؛ لأنه يهتم بالآخرين ويحاول دائمًا أن يكون نموذجًا مثاليًّا ومثمرًا، ويشغلُ نفسَه مع أخوته وأخواته من المسلمين الذين يتواجدون في مجتمعنا، وبتقاليد إيمانه يرفع القيم الأمريكية، إنه حقًا أمريكيٌّ عظيم، وساعدني كثيرًا في التواصل مع المجتمع الإسلامي والتعرف على الأنشطة التي تعكس هذا الجزء الحيوي من مجتمعنا الكبير المتعدد الثقافات، لقد قابلت العديدَ من الناس من خلال محمد؛ لأنه كان يعرف الكثير من الناس، لا أصدق كَم من الناس عرَفَنِي في ذلك الوقت القصير، كنتُ معروفًا ليس فقط في مدينتي، ولكن خارج حدودها قبل أن أركض إلى مكتب الخدمة العامة، أنا متلهّف لقراءة هذا الكتاب وليس فقط؛ لأنه من الواضح أن يكرّر كلمات صديقي، كلمات الحب، ولكن أريد أن أقرأه؛ لأنها سوف تكون كلماتٍ رائعة حول تجاربه، إنه شخصٌ مغامرٌ، ومن ذلك النوع الذي يهتم بمجتمعه.

John Paige. FBI

I met Mohamed Younes and Sohail Mohamed in the fall of 1999 after being assigned as Federal Bureau of Investigation Supervisory Special Agent for one of the Garrett Mountain Resident Agency Squads in West Paterson. I was contacted by Sohail Mohamed and he requested that I meet with him and Mohamed Younes at the Islamic Center of Passaic County. Growing up in New York I had gone to high school with young men and women that belonged to the Nation of Islam. It was agreed that we would meet at the Islamic Center of Passaic County. I met with Mohamed Younes and Sohail Mohamed at the Mosque، after some conversation، I requested to speak to the congregation at a Friday (Jumah) prayer. They stated that they would have to get approval from the executive board. Several weeks later، I was contacted

by Mohamed Younes and it was agreed I would speak quickly to the congregation at the conclusion of aFriday Prayer. The Passaic County Prosecutor's Office Bias Crime Officer spoke and then I did. I requested the congregation report any types of corruption and promised the FBI would treat the community the same as all other communities with no special treatment; just the same treatment. I learned from the meeting that Sohail Mohamed was an immigration attorney and Mohamed Younes was a businessman that owned a dye factory in Paterson.

Mohamed Younes advised he lived in Franklin Lakes and Sohail Mohamed advised that he lived in Clifton، NJ. In regard to meeting Mohamed Younes، at first، I was not sure what to think. I was told ahead of time that he was a Chemical Engineer، owned a dye factory was an Egyptian and lived in Bergen County. At our first meeting he was loud، aggressive، confident، and appeared to be an aggressive and cunning businessman. I learned in reality he was a kind، caring، loyal and concerned individual that loved our country and his community.

Mohamed Younes realized in the mid-nineties that many Americans did not know the Islamic Community in New Jersey and metropolitan area. Additionally، he believed the Islamic community، as

well، had not developed relationships with faith Based organizations، public officials، private sector، public sector and law enforcement in New Jersey (local، county، state and federal). I believe this is the reason Mohamed Younes created the American Muslim Union and in my view it was one of the first organizations in the early 1990s to promote Islamic Groups that would reach out to above. The American Muslim Union on a daily basis promoted this interaction and at least several times a year held functions that would bring in excess of 300 people together from all faiths and occupations that interacted and built relationships. The current proof of the American Muslim Union success regarding Islamic Community in New Jersey is the number of individuals in local، county and state law enforcement، New Jersey State Judges، NJ mayors، freeholders، members of town/city council and successful men and women in every field of employment. Immediately، after September 11، I، as Supervisory Special Agent of Garrett Mountain Resident Agency، requested assistance of American Muslim Union through the relationship that Mohamed Younes had with the New Jersey metropolitan Islamic

Community. The American Muslim Union arranged meeting with leaders of North Jersey Mosques wherein Federal Bureau of Investigation، United States Attorney، New Jersey State Police، New Jersey Attorney General and Prosecutors met to discuss matters of concern to all and to request assistance from community.

Several weeks after September 11، after numerous complaints were made public by community، the American Muslim Union was requested to meet with members of the Federal Bureau of Investigation، Newark Joint Terrorism Task Force to talk about the complaints. The vision of the American Muslim Union was to talk about complaints، but also to explain Islamic Customs and tradition so the federal investigators could interact better with the community during the interview process. Mohamed Younes and Sohail Mohamed made a quick presentation before over 800 investigators. After this training، the complaints from the community regarding interactions with law enforcement greatly diminished. The American Muslim Union was thereafter requested by Newark FBI and New Jersey State Police to provide this training to New Jersey Law Enforcement. The American Muslim Union agreed and training was provided by Mohamed Younes and Sohail Mohamed

to all New Jersey State Police and academy candidates; further the American Muslim Union provided same training to numerous New Jersey law enforcement throughout the state. This effort continued for numerous years. The American Muslim Union helped to promote the Islamic Community through this training. The American Muslim Union promoted the idea of Islamic Community Outreach throughout New Jersey and nationwide the Islamic Community made inquiry how the American Muslim Union was able to accomplish the outreach. The American Muslim Union consistently strived for the Islamic Community to receive the same treatment in all aspects of American life as any other community. It requested the same treatment، not special.

The American Muslim Union and Mohamed Younes have continued to be an active partner in the New Jersey faith based communities.

Since our initial meeting in 1999 Mohamed Younes and I have continued our relationship. He continues to be loud and have opinions many of which are different from mine. I learned he was willing to stand by his words، even if many did not agree. I have had the honor of meeting his adoring wife، daughters and most of his grandchildren. There is not a time I cannot call Mohamed Younes for advice and I believe he feels the same in contact with me. I consider him

more than a friend and appreciate our debate on matters in which we different.

التقيتُ محمد يونس والمحامي سهيل محمد في خريف عام ١٩٩٩ بعد اتصال هاتفي من سهيل، وطلب مني أن أقابلَهم في المركز الإسلامي لمقاطعة (باسيك)، وكنتُ حينذاك معيّنًا وكيلًا خاصًّا لمكتب التحقيقات الفيدرالي لإحدى فرَق وكالة (جاريت ماونتن) بغرب مدينة (باترسون)، وتم الاتفاق بيننا وبالفعل تقابلنا هناك، وبعد حديثي معهم طلبتُ منهم أن أُلقِيَ كلمة في صلاة الجمعة التجمع الأسبوعي لعموم المسلمين، ولكنهم رفضوا وقالوا لي "لا بد من موافقة مجلس الإدارة لدى المسجد"، وبعد عدة أسابيع أتَوا لي بالموافقة على أن أتحدّث سريعًا وبطريقة موجزة بعد صلاة الجمعة، وأشرتُ في كلمتي إلى أن مكتب التحقيقات الفيدرالي يَعِدُكم ويحثّ عليكم أن الجميع هنا يعامَلُ معاملة واحدة، وليس هناك مَن يُعَامل معاملة خاصة؛ فكلُّنا سواء أمام القانون، وعليكم التعاون والإبلاغ عن أي نوع من أنواع الفساد، ونوَّهْتُ أثناء حديثي أنّي نشأتُ في منطقة (بروكلين) بنيويورك، وكنتُ أذهب إلى المدرسة الثانوية مع شباب مسلم، وأعرف الكثير عن تقاليد وعادات المسلمين.

وعودةً إلى محمد يونس الذي قدَّم نفسه لي على أنه مهندس كيميائي مصري، ويمتلك مصنعًا للأصباغ في مدينة الحرير، ويسكن في منطقة

البحيرات المعروفة باسم (بحيرات فرانكلين)، وهي تعتبر أرقى مناطق مقاطعة برجن، وبدا لي في اللقاء الأول أنني أمام رجل أعمال ماكرٍ وعدوانيٍّ وواثق من نفسه إلى أبعد مدى، وفي الحقيقة لم أكن متأكدًا من إحساسي نحوه، أو ما كنت أفكر فيه، على عكس سهيل محمد محامي هجرة ويعيش في منطقة (كليفنتون) بها العديد من المهاجرين.

تعدّدَت اللقاءات بيننا، واكتشفتُ أنه إنسانٌ طيّبٌ ومخلصٌ ومهتم بجماعته من المسلمين، وأيضًا يحب بلدنا.

واكتشفتُ أن محمد يونس له رؤيته الخاصة منذ منتصف التسعينيات؛ وهي أن العديد من الامريكيين لا يعرفون شيئًا عن المسلمين، وفي المقابل المسلمون لم يحاولوا أن يقِيموا علاقات مع جمعيات ومنظمات أخرى قائمة على العقيدة، وأيضًا ليس لديهم أي تواصل مع الموظفين العموميين في الولاية، ولا حتى جهات تطبيق القانون؛ سواء الجهات الاتحادية أو الفيدرالية، وأعتقد أن هذا السبب الذي دفَع يونس إلى إنشاء الاتحاد الإسلامي الأمريكي، والذي أصنفه بأنه أولَى المنظمات التي جمعَت المسلمين تحت مظلة واحدة، وعرفنا نحن كجهات أمنية في المجتمع أن نتواصل مع جموع المسلمين في الولاية، وأصبح لدينا جسورُ تواصل معهم عن طريق سلسلة اللقاءات السنوية والتفاعلات اليومية، واستطاع الاتحاد الإسلامي بقيادة يونس أن يبني علاقات بين جميع الأديان، وليس المسلمون فقط،

وخرج من الاتحاد الإسلامي قضَاة ورؤساء بلديات وعدد كبير من أفراد قادرين على إنفاذ القانون كرجال وسيدات في مراكز سيادية وأمنية مختلفة مدعومين من قبل الاتحاد الإسلامي الأمريكي.

وبعد وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١طلبتُ المساعدة من الاتحاد لاحتواء هذه الفاجعة الكبيرة التي هدّدَت السلام الاجتماعي بين الناس قبل أن تهدّد الأمن القومي، وبالفعل استجاب يونس ومَن معه من أعضاء المنظمة مع قادة مساجد شمال (نيوجيرسي) وتعاونوا معنا، واجتمعوا مع مكتب التحقيقات الفيدرالي والمدّعِي العام للولايات المتحدة، وأيضًا المدعي العام لولاية (نيوجيرسي) وشرطة الولاية؛ لمناقشة المسائل الامنية التي تهمّ المسلمين ورجال تحقيق القانون وسط هذه الأجواء الصعبة والمتوترة.

وقد تسلمنا العديد من الشكاوَى من قِبَل أفراد المجتمع لسوء معاملة المسلمين من الجهات الأمنية، وكان الاجتماع مع قادة المسلمين ومنظماتهم بشكل دوريّ لتثقيفنا له عظيم الأثر في فهم عادات وتقاليد المسلمين وكيفية التعامل معهم، وتمكّن المحقّقون الفيدراليون من التفاعل بشكل أفضل مع المسلمين خلال عمليات التوقيف، وكانت هذه اللقاءات والدروس التثقيفية والمحاضرات، والتي عُقِدَت لأكثر من ٨٠٠ محقق اتحاديّ ورجال شرطة، وبموافقة مكتب التحقيقات الرئيسي في مدينة نيوارك، وبالفعل نجحنا في مهمتنا، وقلَّت الشكاوى إلى نِسَبٍ مقبولة، وكل هذا بفضل محمد يونس

ومنظمته التي ساعدَتْنا كثيرًا إبان تلك المحنة، والتعاون مستمر بيننا إلى الآن، والذي نعتبره كشريكٍ نشطٍ مع المنظمات والجمعيات الدينية في (نيوجيرسي).

علاقتي بمحمد لا زالت متواصلة وأعتبره اكثر من صديق، وأطلب منه المشورة ودائمًا أجده حين أحتاجه، ونحتوي مناقشتنا في المسائل التي نختلف فيها، ولقد تشرّفتُ بمعرفة زوجته وبناته وأحفاده، ورغم كل هذه السنوات لا يزال هو ذلك الرجل الذي قابلته أول مرة، وأعرفه منذ أكثر من عقدين من الزمان، مستعدٌّ أن يمشي بطريق كله ألغام من أجل الوقوف إلى جانب كلمته والثبات على موقفه، وأيضًا ما زال صاحب الصوت العالي.

Mr. Charlie McKenna Former prosecutor in the district of New Jersey.

In 1993، I was a relatively new federal prosecutor in the district of New Jersey. Our offices were across the street from federal courthouse in Newark New Jersey. I was lucky in that I was paired with a very senior and savvy prosecutor who was going to trial in a labor racketeering case involving the president and vice-president of Dyer's local 1733 of the Amalgamated Clothing and Textile Workers Union (ACTWU). Joe and Ray LaBark were charged with shaking down the owners of dye houses in the Paterson area in return for labor peace. If the owners

paid the bribes، they would not have work slowdowns or walkouts and would enjoy a steady operation. If they did not pay، there would be work stoppages، walkouts and labor unrest. In addition، for a fee، the contracts that were negotiated on behalf of the union member would be reasonable and affordable for the companies. These actions worked to the detriment of the dye house owners who were forced to pay for stopping labor unrest and especially to the employees of the dye houses who were essentially pawns in the dynamic between their labor representatives، who cared little about the workers and only about themselves.

Paterson، New Jersey was blessed with a massive waterfall that drops 77 feet، and rushes through the Passaic River Gorge. It was these falls that provided hydroelectric power to the City. Because of its ability to generate power، Paterson became a mill town and was a center of the textile industry. Dubbed the Silk City، Paterson supplied the country with textiles for years thanks to the abundantly inexpensive power the falls provided. In later years، much of the business moved to the south and Paterson was left with far fewer dye houses، where textiles received their colors.

These dye houses were able to survive because they could quickly turn around fabric and get it to the decision-makers in New York. However, that required an ability to fill the orders rapidly. Labor unrest was therefore anathema to the remaining dye houses in Paterson. Joe and Ray LaBark knew that and together with their iron hold over the unionized employees, used that as a wedge to force dye owners to heed their demands. They extorted payments from them because the dye owners had two choices: pay the money to the union leaders or go out of business. It was a Hobson's choice. Pay or go bankrupt. Both to keep the dye houses open and to provide jobs to the remaining Paterson textile workers, many of who were first generation immigrants, they paid.

Grady O'Malley, the senior litigator in the case was gracious to me and agreed to give me some of the dye house owners who would be "my witnesses" at trial. One of these witnesses was an individual who owned a small, older dye house in the city. I made an appointment to meet with him. I drove up to Paterson with the case-agent and met in his paneled, second floor office. He introduced himself to me. Mohamed Younes was a strong man, in body and mind. He himself was an immigrant and he embodied the

American Dream. He believed in the fact that all men were created equal and that everyone should be treated equally before the law. He believed in justice and what was right and he had a hard time understanding how these two union representatives could hold him hostage، but more importantly، how they could hold his employees hostage as well. This was not his vision of America. Not the Country he had come to for a future and dearly loved. Mohamad believed in hard work and being fairly compensated for one's labors. He had a hard time understanding the corruption he was enmeshed in because he believed in America that should not happen. In other places: yes. In the America he emigrated to: no.

Mohamad was unfiltered. He told you exactly how he felt and he did not try to mask his thoughts. He could become heated when discussing injustice and this trial was about injustice. Thus، keeping him calm was going to be a chore. It was also going to take some time to prepare him to remain calm in the face of grueling cross-examination. As a new prosecutor، I did not want my witness blowing up on the witness stand and creating a scene which Mohamad was more than capable of doing. Thus، began our process of getting acquainted with one another.

I don't know if Mohamed was the first Muslim I ever met، but he was the first Muslim who made a

point of telling me about his religion. He was not in your face about it but subtle if that is a word that could ever be used to describe Mohamad. He gave me a booklet about his religion and I have it in my possession to this day. While he was clear in his religion and who he was، he was also an American. I had، in my office، an Elvis Presley clock. It was an inexpensive plastic kitsch item given to me by my sister. It had Elvis's face and the clock was on his chest. What made it novel was that Elvis' leg swiveled back and forth mimicking the movement of the King's hips when he broke through in the 1950's. When he saw it، Mohamed told me that his daughter was a big Elvis fan. He wanted me to know that he was Muslim، but that his faith did not in any way interfere with him and his family being Americans. The two can، he said، work together just fine. I jokingly told him that if he kept his cool on the witness stand، I would get an Elvis clock for his daughter. It became our joke.

Because of Mohamad's combative style، getting him prepared was for me an undertaking. He would sit in either in my office or his، swear that he would be able to remain calm under pressure and would then explode when explaining the injustices that were

being visited upon him and the union members. I would explain that was not the way to approach the matter and he would assure me that he would be fine. I was not convinced.

Just before trial began, the LeBark's called a strike of the dye houses. People were out of work. The dye house owners were fearful of losing their businesses and the outcome of the trial would dictate the future of many lives. The trial took approximately seven weeks. On the day Mohamed took the witness stand, I spoke to him about the need to remain calm and truthful. The truthful part I was not worried about because it was a central tenant of his being. The calm piece, not so much. I was, as a new prosecutor, incredibly nervous. He was not. That made me all the more nervous. I should not have been. Mohamad was the consummate professional on the stand. Articulate, forthcoming and most of all calm. He did not take the defense attorney's bait. He was, in my estimation (as well as the jury's given the verdict), very credible. I would like to think it was because of my preparation but I believe it was because Mohamed knew it all from the start and enjoyed making a new prosecutor nervous.

In the end, the LeBark's were convicted and sent to prison. The strike ended and the people went back

to work. Unfortunately, though, the migration of the textile industry away from New Jersey was inevitable. I believe I spoke to Mohamad one or two times after the trial to thank him for his time and standing up to corruption. He never got his Elvis clock but I kept my booklet about the Muslim faith.

Fast forward nearly eight years and the United States had suffered the worst attack on its soil since Pearl Harbor. People in the United States were viewing Muslims the way they had viewed the Japanese after the bombing. Tensions were high. New Jersey had a large Muslim population, much of it centered in and around the Paterson area. Law enforcement knew that it had to build bridges with the Muslim community in order to lesson tensions. It also knew that the community was law abiding and by engaging the community everyone would benefit.

Entree into the community was key but not so easily done because the community was rightfully wary of permitting law enforcement into their midst giving some of the over action that was occurring at the time. The bridge was fostered, however, because Mohamad, along with Sohail Mohammad, the moving forces behind the American Muslim Union (AMU), understood that both sides of this equation had to reach out and ultimately work together. Mohamad and Sohail (now a Superior Court Judge in New Jersey)

had approached the Federal Bureau of Investigation to offer their assistance in bringing the Muslim Community and law enforcement together.

I was unaware of this when I visited the Islamic Center of Passaic County (ICPC) to meet with leaders of the Muslim Community along with other law enforcement personnel. I was no longer a new prosecutor. I was the Chief of the Criminal Division. I went to the ICPC with Kevin Donovan who headed the FBI's Newark Office.

We met with the leaders of the Muslim community، Mohamad among them. I had not seen him since the trial. When I walked into the room and saw him، I knew he looked familiar and that I knew him but at first could not put my finger on how. At a break he came over and we talked and the past flooded over us. The bond we had formed when he was a dye house owner، and I، a prosecutor preparing him to testify، was rekindled. We have kept that bond going with dinners that occur too infrequently but enough so that we stay close. We are friends.

Through Mohamed and the AMU I have learned about the rich history of the Muslim world. This knowledge and the friendships I have made have enriched the fabric of my life. In getting close to the Muslim community over the years، I have learned،

that they are no different from my Irish ancestors، or the Italian or Greeks or any of the other countless ethnicities that that have come to America. They all came here in search of a better life. In search of the freedoms this country affords. In search of a better place for their families to flourish. In that regard، all of those cultures are the same. When you walk in the Muslim communities، you see all around you the spirit that made America what it is. Hard work، entrepreneurship، a sense of helping one another to succeed. In the community you are safe and the restaurants keep you well fed.

That is the world that Mohamad opened my eyes to see. A world of which he is extremely and rightfully proud. But he is a man who does not forget. And he reminded me that all those years ago I had promised him an Elvis clock for his daughter if he kept his cool. I admit I was late، but the Elvis clock was finally delivered.

المدّعي العام السابق لولاية نيوجيرسي السيد/ شارلي ماكنا

في عام ١٩٩٣ عُيّنتُ مدّعيًا عامًّا جديدًا في ولاية (نيوجيرسي)، وكان مكتبي في الشارع المقابل لقاعة المحكمة الفيدرالية في مدينة نيوارك، وكنتُ من سعداء الحظ؛ لأني بدأتُ حياتي العملية مع واحد من أكبر المدّعِين العامين وله خبرة طويلة، وعملتُ معه في قضية ابتزاز ورشاوَى متورّط فيها رئيس اتحاد العمال ونائبه؛ حيث قاموا بمساومة أصحاب مصانع النسيج في (باترسون)، الدفع مقابل عودة العمال المضربِين إلى العمل واستمرار عجلة الإنتاج، وفي الحقيقة هناك أصحاب مصانع خضَعُوا لابتزاز اتحاد العمال، ودفعُوا الرشاوَى لكي يوفُّوا مواعيد التسليم؛ فتحوّلَت تلك المدينة أيقونة الصناعة والتي كانت تغذِّي الولايات المتحدة بأكملها بالأنسجة والمصبوغات؛ حيث كانت تسمى مدينة الحرير، وذلك بسبب الشلّالَات المتدفّقة ٧٧ قدمًا بسرعة تجاه نهر (باسيك) موفرة الطاقة الكهرومائية للمدينة، وجعلت قدرتها على توليد الطاقة غير المكلّفة التي زوّدَت المصانع وحرّكَت الماكينات، ولكن تلك المدينة لم تكن قادرة على الاستمرار في الصناعة رغم توافر مصادر الطاقة الرخيصة بسبب صانعي القرارات في (نيويورك) التي كانت لعنة على العمال وعلى أصحاب المصانع؛ مما دفع اتحاد العمال لعمليات الابتزاز وحثِّ العمال على الإضراب، حيث كان يعمل في

هذه المصانع العديد من المهاجرين الأوائل، وكانت توفّر فرصَ عملٍ كثيرة لهم.

وقد أسندَ إليّ كبير المحققين في هذه القضية المهمة لإنجازها بنجاح وتحقيق العدالة، وأعطاني أسماء عدد من أصحاب المصانع الواقع عليهم الابتزاز النقابيّ؛ ليكونوا شهودًا في القضية ضد اتحاد العمال، فحجزت موعدًا مع أحدهم، وقُدتُ سيارتي وذهبتُ إلى (باترسون) للقائِه في مكتبه، وقدّم نفسه لي "أنا محمد يونس"؛ حيث بدا لي مهاجرًا ممن جسّدوا الحلم الأمريكي بكل تحدياته.

وأعربَ في لقائنا الأول عن صدمته في بلد كبير مثل أمريكا، وكيف يقَعُ فيها فساد بهذا الشكل الفظيع، وكيف يجرؤ اتحاد العمال على احتجازه داخل مصنعه مع موظفيه ووقف عجلة الانتاج؛ فهو يؤمن بأن الجميع متساوون أمام القانون، وليس هناك قوة أكبر من القانون، ويجب معاملة الكل بنفس القدر أمام القانون.

وبدأَت انطباعاتي عنه تتكوّن من أول لقاء؛ فهو ثائر جدًا من أجل الحق، وبالأخص عند مناقشة الظلم، وكان عليّ إعداده للشهادة قبل الوقوف أمام منصة القضاء؛ فكنت في ذلك الوقت مدّعيًا عامًا جديدًا ولا بد من الحفاظ على الهدوء التام لمواجهة الاستجواب المضاد، ويتطلب هذا هدوء أعصاب، وحتى لا ينفجر شاهدي -وأعتقد محمد كان سوف يفعلها لطبيعة شخصيته-

، ولذا تعدّدَت اللقاءات بيننا لإعداده لهذا اليوم، وهكذا بدأنا التعرف على بعضنا البعض، وفي الحقيقة لا أعرف ما إذا كان محمد أول مسلم أقابله في حياتي أم لا، ولكن أتذكّر جيدًا أنه أول مسلم يحدّثُني عن دينه، لقد أعطاني كتابًا عن الإسلام، وما زِلتُ أحتفظ به إلى يومنا هذا.

ومن المواقف اللطيفة التي أتذكّرها معي كان لديّ في مكتبي ساعة مرسوم عليها وجه (الفيس بريسلي) أهدَتْها لي أختي، وعندما رآها أخبرني أن ابنته من كبار مشجّعي الفيس؛ ففهمت من مقصد حديثه أنه يريد أن يخبرني بأنه مسلم ولكن إسلامه لا يتعارض بأي شكل من الأشكال مع كونه هو وعائلته أمريكيون؛ فهو واضحٌ في دينه وأمريكيّ أيضًا، فقلت له مازحًا "لو حافظتَ على هدوءك أمام المحكمة سوف أعطي لك تلك الساعة هدية لابنتك"، ما كان يقلقني أسلوب محمد الحادّ، وكنت أخشى أن ينفجر تحت أي ضغط ونخسر القضية أمام الولاية، وأتيتُ بمحمد ثانية إلى مكتبي، ووعدَنِي بأنه سوف يكون هادئًا في شرح الظلم الذي وقع عليه من قِبَل اتحاد العمال، وقد استمرَّت القضية سبعة أسابيع، وبالفعل التزم محمد بالهدوء وكسبنا القضية، وأرسلَ رئيس الاتحاد إلى السجن وفكَّ العمال إضرابهم وعادوا إلى العمل، ولكن بحكم القوانين الاقتصادية الجديدة هجرَتْ صناعة النسيج مدينة الحرير ولا مفرّ من مواجهة هذا.

اتصلتُ بمحمد مرتين بعدها لأشكره على وقته وجهده ووقوفه في وجه الفساد، ولم يحصل منّي كما وعدته على ساعة (الفيس بريسلي)، ولكني أبقيتُ كتابه الذي أهداني إياه عن الإسلام.

بعد ثماني سنوات تعرضَت الولايات المتحدة الأمريكية لهجوم على أراضيها وهو الأسوأ منذ وقوع هجوم (بيرل هاربر)؛ وهو أحداث سبتمبر، وكان الأمريكيّون ينظرون إلى المسلمين بنفس الطريقة البشعة التي كانوا ينظرون بها إلى اليابانيين بعد تفجيرات (هاربر)، وكانت التوترات في قمّتها، ويوجد في (نيوجيرسي) عددٌ كبيرٌ جدًا من المسلمين، وكثير منهم يسكن في منطقة (باترسون)، ومن أجل الحفاظ على آلية تنفيذ القانون كان لا بدّ من بناء جسور مع المجتمع الإسلامي حفاظًا أيضًا على السلام الاجتماعي بين الناس، وتم تدشين هذا الجسر عن طريق محمد يونس، والمحامي سهيل محمد الذي أصبح قاضيًا بعد ذلك، ومنظمة الاتحاد الإسلامي الأمريكي.

اتّصلَ سهيل بمكتب التحقيقات الفيدرالي لعرض المساعدة في الجمع بيننا وبين الجالية المسلمة في الولاية، وكنت هذه الأثناء في منصب رئيس شعبة مكافحة الجريمة، وتم اللقاء في المركز الإسلامي لمقاطعة (باسيك) مع مجموعة أمنية يترأسّها رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي الجديد بنيوارك السيد/ كيفن دونوفان، وقابلتُ محمد مرة ثانية بعد عدة سنوات من قضية اتحاد العمال، وتحدثنا عن ذكرياتنا معًا في هذه القضية، ولا أنكر أنه من خلال

محمد والاتحاد الإسلامي الأمريكي والصدقات التي كوّنتُها مع المسلمين أثّرَت كثيرًا في نسيج حياتي، وتعلّمتُ من خلال قربي منهم أنهم لا يختلفون عن أسلافهم المهاجرين من الأيرلنديين أو الإيطاليين أو اليونانيين أو أي أحد آخر من الأعراق التي جاءت إلى أمريكا، لقد جاءوا جميعًا للبحث عن حياة أفضل ومكان أفضل لعائلتهم، وعن الحرية التي توفرها بلادنا للجميع، وترى الرّوحَ التي جعلَت أمريكا ما هي عليه الآن من العمل الشاق من أجل النجاح.

هذا هو العالَم الذي فتح فيه محمد عينيّ عليه لرؤيته بوضوح، وأنه بالفعل رجلٌ لا يُنسى، وأعلم أنني وعدتُه كل هذه السنوات بساعة (الفيس بريسلي) لابنته، وأعترف أنني تأخرت، ولكني اليوم وفَّيتُ بوعدي وأهديتها له أخيرًا.

الدروس المستفادة من قصة هروب إلى قمة النجاح

مع نهاية كل قصة كفاح دروس مستفادة وعِبَرٌ كثيرة تشجّع المهاجرين الجُدُد على المثابرة والعمل الدؤوب من أجل تحقيق الأحلام التي يسعى الإنسان لها خلال مشوار حياته، ومن استِلْهام تجارب الآخرين نجد الطريق ونحدّد بأيدينا نقطة بدايته، ونحذر من منعطفات منحنياته الوعرة والضيقة من أجل أن نصل إلى نهايته بسلام وأمان، الحياة رحلة شاقة أوّلها كفاح وآخرها نجاح، ولكل مجتهد نصيب، وبالصبر والإيمان والاستعانة بالله يصل الإنسان إلى أسمى غاياته؛ فالعمر لحظة تحدِّي كبيرة، والنية الخالصة يكمن فيها سر نجاح الإنسان، ومحمد يونس مجرد إنسان رفض أن يكون مجرد اسمٍ مسجل في قائمة مواليد الدنيا، وأخذ على نفسه عهدًا أن يكون إنسانًا يستحق نعمة ربنا عليه وميّزَه عن بقية خلقه بالعقل والحكمة والتفكير، عمل جاهدًا لاكتشاف قدراته الذاتية، وتذكروا جيدًا حكمته المشهورة في الحياة:

"مَن ليس عنده قدوةٌ يقتدي بها، ليس عنده كرامة ليحافظ عليها".

محمد يونس وألبوم صور لمسيرة الاتحاد الإسلامي الأمريكي عبر عشرين عامًا من التواصل وبناء الجسور

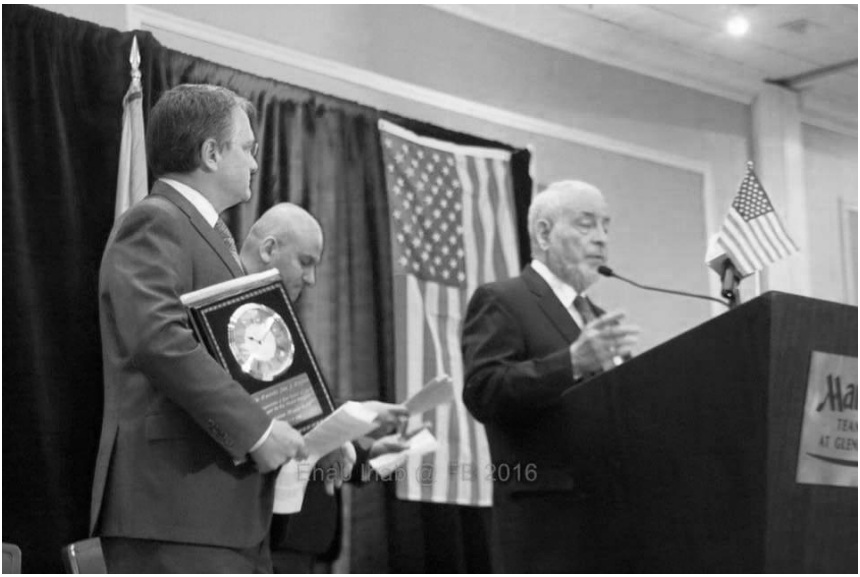

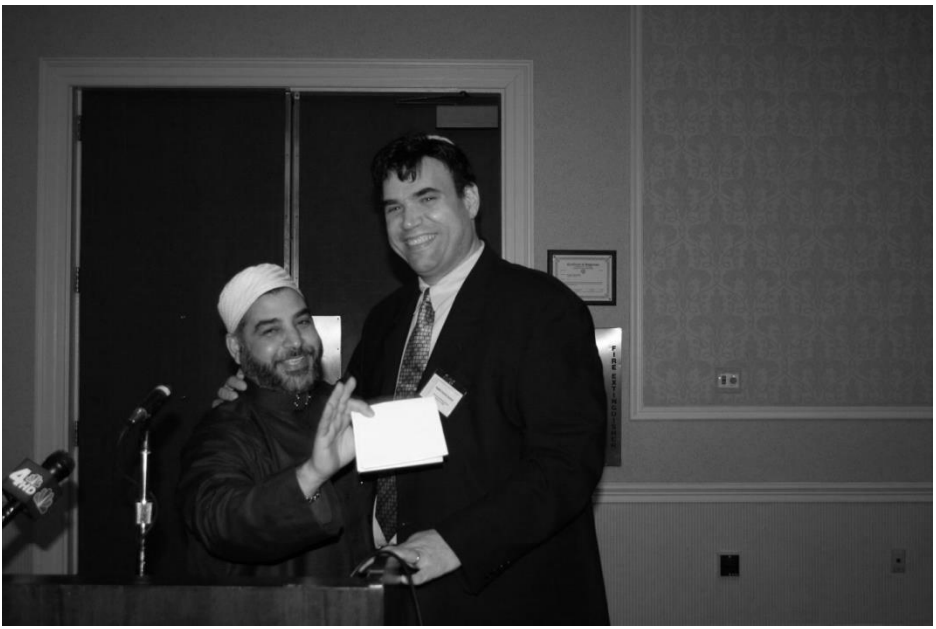

29

Coat Room

EXIT

VIEW DETAILS

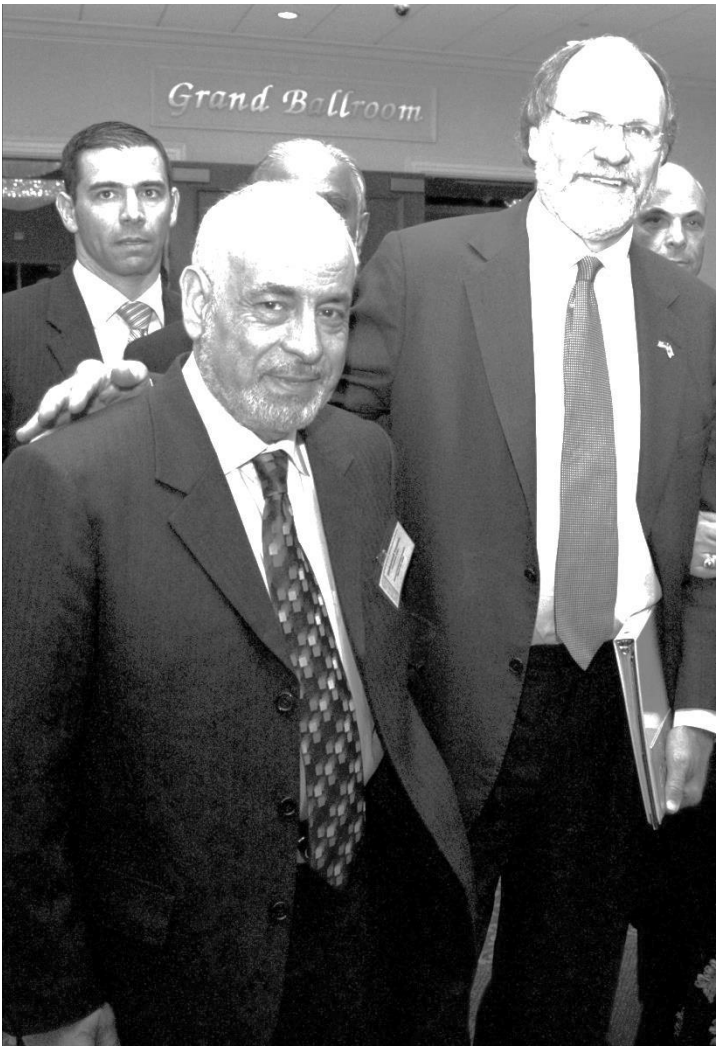
Grand Ballroom

14

من ليس له قدوة يقتدي بها

ليس له كرامة ليحافظ عليها